الثقافة العقليَّة

ودورها في نهضة الشعوب

سلسلة إصدارات أكاديمية الحكمة العقلية | 11



السيِّد الدكتور سعد شريف البخاتي





سلسلة إصدارات أكاديمية الحكمة العقلية (11)

الثقافة العقليّة

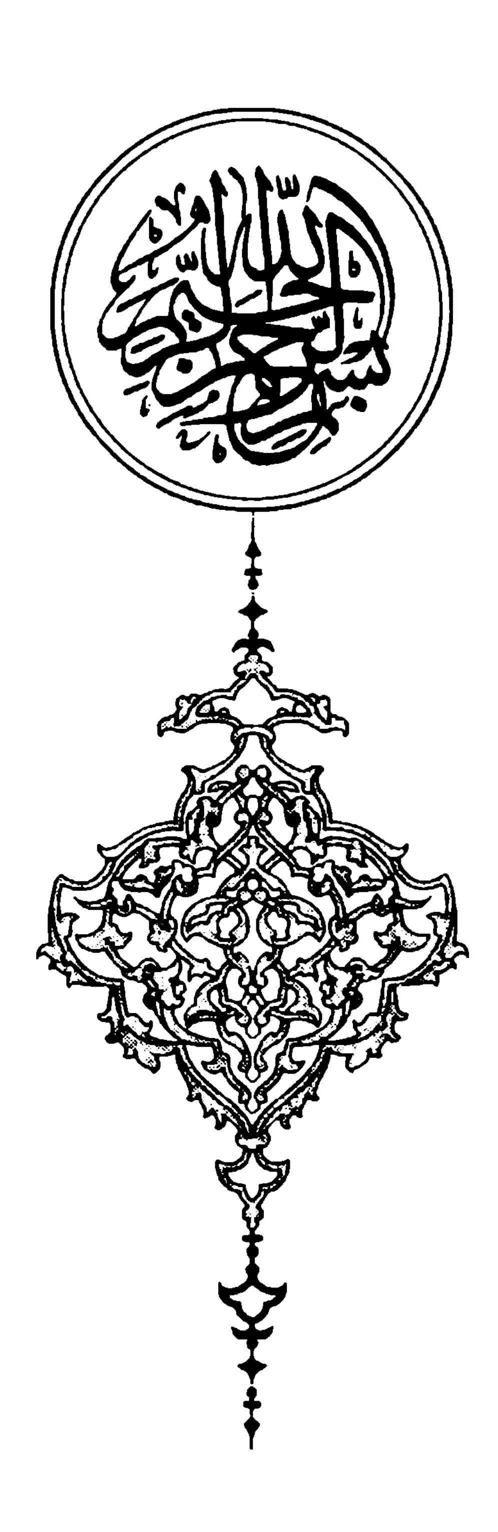
ودورها في نهضة الشعوب

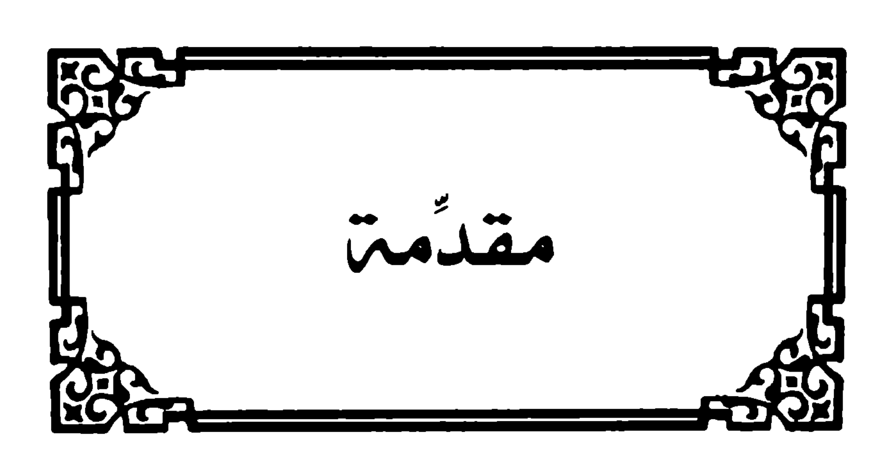
السيد الدكتور سعد شريف البخاتي

پدید آورنده: بخاتي، سعد شريف، 1355-
عنوان: الثقافه العقليه ودورها فى نهضه الشعوب
تكرار نام پديد آورنده: سعد شريف البخاتي
مشخصات نشر: قم: دفتر نشر مصطفى، 1435هـ = 2014م = 1393
مشخصات ظاهرى: 136 ص
فروست: سلسله انتشارات آكادمى حكمت عقلى 11
شابک: ISBN: 978-964-466-128-0
وضعيت فهرست نويسى: فيپا
يادداشت: كتابنامهبه صورت زيرنويس.
يادداشت: عربى
موضوع: فلسفه اسلامى
موضوع: عقل (اسلام)
موضوع: شناخت (فلسفه)
شناسه افزوده: آكادمى حكمت عقلى
رده كنگره: 1393 . 7ث . 3ب . / BBR14
رده ديويى: 1 / 189
شماره مدرک: 3113271

هوية الكتاب

الكتاب: الثقافة العقلية ودورها في نهضة الشعوب
المؤلف: السيد الدكتور سعد شريف البخاتي
المشرف: الأستاذ الدكتور أيمن المصري
المراجع اللغوي: أسعد التميمي
الإخراج الفني: أمجد الأنصاري
تصميم الغلاف: عباس كبير
الناشر: المصطفى
القطع: رقعي
العدد: 1000
الطبعة: الأولى سنة 1435 هـ. 2013م
رقم الإيداع الدولي: 978-964-466-128-0


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدِّمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة على سيِّدنا ونبيِّنا المصطفى محمَّـدٍ، وعلى آله الطيِّبين الطاهرين.

نظرة سريعة إلى الواقع الذي يعيشه المجتمع العربي والإسلامي، تجعلـك تلمس مفارقات كبيرة ممتدة في عمق التاريخ، فإنَّـك تجـد مجتمعـاً يمتلـك الفكرالنبيل، والمعتقد السامي، والنظام السماوي ذا النظرة الـشموليَّة الـتي تناغمت مع جميع مفردات الحيـاة الفرديَّـة والاجتماعيَّـة، وتعاطفـت مـع الجانب الروحي والمادّي، فأولتهما أهمّيةً قـصوى؛ لـترتقي بهمـا إلى حيـث كمالهما.

وتجد في أحضان هذا المجتمع، نما وترعرع أفذاذ التاريخ وخـيرة أبنـاء البشر، ولا أظن أُمَّةً من أمم الإنسانيَّة تطمع في أن تنجب ما أنجبتـه الأُمّـة الإسلاميَّة.

ومع كلِّ هذا التراث الفكري الثر، والشخصيات العظيمـة مـن علمـاء ومفكّرين، وما أودعه الله تعالى من إمكانات وثروات في أرض هذه الأُمّة.

فمع هذا كلّه نجدها آخر الركب يلفّها الجهل، ويحتضنها الفقـر، ويلفـح وجهها سموم التشتّت والاختلاف.

ومفارقة أخرى يُذهَل لها اللبيب، فيظلُّ حيراناً، ما نشاهده من تحمّـس

أبنائها إلى كلّ شيءٍ إلَّا تخليص أُمّتهم ممّا ينتابها من محنتها، إلَّا البعض الذي ركب طريق الإصلاح بحفنة كلمات يسطّرها على متون الورق، أو ينثرها في الهواء، يأمل أنَّه سيعيد للأُمّة حضارتها من خلال ذلك.

ولا نريد من هذا الكلام مصادرة جهود بعض المفكّرين والعلماء، الذين بذلوا الكثير في سبيل مجدها وعلوّ كلمتها، رغم صعوبة المرحلة وقساوة الزمن، الذي كلّف البعض الكثير حتّى سيل الدماء، ورغم بُعد الغالبية عن مستوى الطموح حتّى كأنَّ من يريد الإصلاح والنهوض بالأُمّة كأنَّه يغرّد خارج السرب، إلَّا أنَّ ذلك لم يثنهم عن السير وكسر الصمت، وجمع ما يمكنه جمعه من الشتات.

ولكن تبقى المأساة كبيرة، وليس من الإنصاف أن نغض الطرف، ونطأطأ الرأس لنقول: إنَّا قد تجاوزنا جميع العقبات، ولم تعد أُمّتنا تعاني من بؤسها القديم، بل ها هي أُمّتنا تنافس الأمم. بل الحقُّ يدعو إلى أن نفتش عمَّا ينخر في جسد أُمّتنا من مشاكل وسلبيات لنتعرّف على أسبابها، ثمَّ نبذل غاية الوسع لرفع المشكلة من الأساس.

وأنَّى لنا أن نغض الطرف عن عواصف الأفكار التي تجترف أبناءنا قادمةً من غرب الدنيا تارةً، ومن شرقها أخرى؟!

وكيف نتجاوز فكرة تيار الجمود على ظواهر النصِّ وتبعاته الأليمة، التي صبّت بويلاتها على أبناء الأُمّة من التكفير والقتل وزرع العداء بين المسلمين؟!

وأنَّى لنا التناسي أو التجاهل لما يسبّبه أصحاب المذاهب الكشفيَّة المنحرفة، والعيش على جهل الأُمّة؟!

فإنَّ جلسات معدودة مع شباب اليوم تطلعك على شتّى الأفكار

المستوردة التي لا تمت إلى معتقداتنا بشيء، حتّى وصلت ببعضهم أن ينكر كلَّ مقدّس بما فيها وجود المولى تبارك وتعالى، أو الفكر الالتقاطي الذي ضاع فيه بعض مثقّفينا، فراح يؤمن بالإسلام فكراً وعقيدةً، ولكن يؤمن بأنَّ الآيديولوجيَّة لا بُدَّ أن تستجدى من فكر أبناء القارة الصفراء، ويدع النظام الإسلامي وتشريعاته خلف ظهره؛ لأنَّها ـ بنظره ـ لم تعد تلبّي حاجة العصر.

وهكذا نغط في مشاكلَ أخرى من لونٍ آخر على مستوى السلوك والأخلاق، والتشبّه بالغير، وضعف الجانب الروحي والمعنوي، وغياب عنصر الإيمان في الحياة اليوميَّة، وتشبث الأغلبيَّة بالجانب المادّي، ممَّا أثّر على الوضع السياسي للأُمّة؛ بحيث فقدت هويّتها واستقلاليَّتها، وغاب فيها الشعور بالمسؤوليَّة، وشاعت التبعيَّة للغير، والحياء من الماضي المشرق؛ لجهلهم به.

ومن هنا مسّت الحاجة إلى تسليط الضوء على مشكلةٍ كبيرةٍ كهذه، والبحث عن أسبابها وكيفيَّة علاجها؛ من خلال قراءةٍ تشريحيَّةٍ لدور الثقافة في إيجاد المشكلة أو حلِّها.

فروض البحث

ومن خلال دراستي ومطالعاتي في هذا الجانب ـ الذي يمثّل جلَّ اهتمامي ـ والتي دامت سنوات طوال تكاد تبلغ العشرين عاماً، توصّلت إلى مجموعةٍ من الفروض، أثبتها علماء الحكمة في متناثرات كلماتهم، وهي:

الأوّل: إنَّ أفعال الإنسان الاختياريَّة الفرديَّة والاجتماعيَّة ناشئة من ثقافةٍ معيّنة.

الثاني: وجود ترابط بين طريقة التفكير، وما يحمله الإنسان من رؤيةٍ كونيَّة (معتقد) وآيديولوجيَّة (نظام) وسلوك.

الثالث: وجود أيِّ خللٍ في أيِّ جزءٍ من هذه المنظومة يؤثّر على باقي السلسلة.

الرابع: مَن أراد العلاج والإصلاح، فعليه أن يبدأ بالعلاج من الجذر.

وبناءً على ما أشرنا إليه من فروض، يتحتم على رجال الإصلاح وروّاد النهضة أن يبدؤوا رحلتهم الإصلاحيَّة النهضويَّة من الجذر، ولا يضيِّعوا الوقت بأمورٍ جانبيَّة، بل لا بُدَّ من غرس البذور في المواطن الخصبة من التربة. فلا يمكن أن نحصل على ثقافةٍ نقيَّةٍ ما لم نُنقِّ بذورها وطرق الحصول عليها وقانون كسبها وزرعها.

فعلينا أن نستوعب الترابط بين مفردات المنظومة الفكريَّة، التي تتحكم في نهاية المطاف بالسلوك الفردي، بل قد تُقرِّر الظاهرة الاجتماعيَّة.

بعد هذه الإطلالة، لا أجد ضرورة في بيان أهمّية البحث؛ لحسن ظني بالقارئ النبيه، في أنَّ بحثاً هذا همّه وتلك غايته لهو أجدر بأن تُبذل فيه الطاقات وتوحّد له الجهود، من أجل أن ننهض بالأُمّة ونوصلها إلى مكانتها التي تصدرتها في سالف أيّامها؛ لتكون أُمَّةًوسطاً كما وصفها ربُّها، وسعى لذلك نبيُّها المصطفى ﷺ.

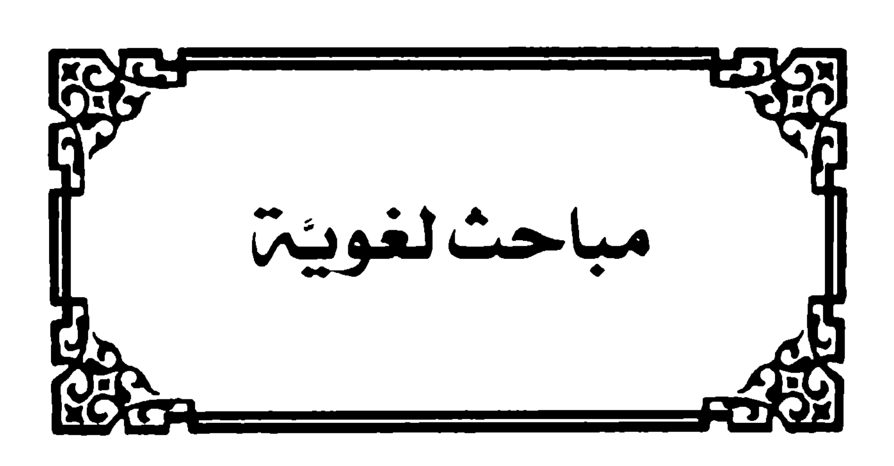
ولا يفوتني الإلماح إلى أنَّ ظاهرة الإصلاح وإخراج الأُمّة ممَّا هي فيه من مأزق متعدّد الجهات، تعرّض لها جملة من نجوم الفكر من علماء ومفكّرين، أمثال: **جمال الدِّين الأفغاني، والشهيد محمّد باقر الصدر، وإقبال اللاهوري، والشهيد المطهّري، ومالك بن نبي**، وأمثالهم، من الذين ظلت نشاطاتهم رائدة في هذا الباب.

فعلى من يريد أن يكتب في هذا الباب، أن يقرأ فكر هؤلاء النخبة قراءةً نقديَّة، وتمحيص ما توصّلوا إليه، ثمَّ يُظهر لقرّائه نقاط الفرق والجدة التي استوحاها في رحلته هذه.

ومن هذا الباب، أودُّ أن أسجّل بعض ملامح الجدة في هذا البحث بشكلٍ مجملٍ، نترك تفاصيلها إلى مطاوي البحث. فإنَّ هؤلاء العظماء تعرّضوا لدراسة الساحة الاجتماعيَّة من زوايا مختلفة، فكلٌّ نظر إليها من زاويةٍ هي في نظره سبب الأزمة من جهةٍ، وطريق الحلِّ من جهةٍ أخرى، إلَّا أنَّ الذي يمكن تسجيله على عجالةٍ هنا ـ مع الاحتفاظ لهم بعظيم جهودهم التي أنارت الدرب أمامي ـ هو أنَّهم سلّطوا الأضواء وركّزوا الجهود على دراسة المسائل الاجتماعيَّة ومن ثَمَّ علاجها مباشرةً، فبعضهم يرى أنَّ المشكلة سياسيَّة، فحاول أن يجد الحلول للأزمة السياسيَّة، وآخر يرى أنَّها أخلاقيَّة، أو الابتعاد عن الدِّين، وهكذا.

ولم ينظروا إلى عمق المسألة وجذورها، والأسباب الكامنة وراء الأزمة السياسيَّة والأخلاقيَّة والدينيَّة، وما شابه ذلك من تفرعات المشكلة الحقيقيَّة. نعم، يمكن أن يقال إنَّ ابن نبي قد اقترب كثيراً من شبح المشكلة إلى حدٍّ كبير، حيث أرجع الأزمة إلى مشكلة الثقافة واعتبر الخواء الثقافي وراء جميع الأزمات. وهو محقّ إلى حدٍّ ما، ولكن السؤال لا ينقطع؛ إذ لنا أن نستفهم من ابن نبي عن سبب الخواء الثقافي والأزمة الثقافيَّة التي ترمي بظلالها على أُمّتنا العربيَّة والإسلاميَّة؟

هذا ما حاولت أن أسلّط الأضواء عليه؛ لأجد أنَّ الأزمة أعمق من الثقافة، بل هي في أساس التفكير وأصوله وحدود المناهج المعتمدة في كسب الثقافة، الذي منه تتولّد الثقافة، وتُبنى قلاعها ويُحكم رتاجها.


مباحث لغوية

مفردات البحث

أولاً: الثقافة

لا نريد أن نطيل على القارئ الكريم بالبحث عن أصول الكلمة وجذورها عند أهل اللغة، ولكن يحسن بنا أن نطلّ ولو بشكلٍ سريع على معناها اللغوي؛ لنتعرّف على العلاقة بين لفظ الثقافة ومواضع استعماله اليوم، وما يؤديه من معنىً، له خصوصياته التي لا يشاركه فيها غيره من الألفاظ والكلمات، وبين ذات اللفظ بما يحمله من تراث يمتدّ في عمق التاريخ؛ ولذا فإنّي أقدم بين يديه نبذةً مختصرةً عن المعنى اللغوي والاصطلاحي لبعض المفردات الواردة في البحث.

الثقافة لغةً هي: الذكاء وسرعة الفهم وجودته، فقد ذكر **الخليل** أنّ: (الثقف مصدر الثقافة، وفعله ثقف إذا لزم، وثقفت الشيء وهو: سرعة تعلمه. وقلب ثقف أي: سريع التعلّم والتفهم)[1]، وقال في **الصحاح**: (ثقف الرجل ثقفاً وثقافة، أي: صار حاذقاً ... وثَقِف أيضاً ثقفا، مثال تعب تعباً: لغةً في ثقف، أي: صار حاذقاً فطناً...)[2].

---

(1) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، ج5، ص139.

(2) الجوهري، إسماعيل بن حمّاد، الصحاح، ج4، ص1313.

وأمَّا **ابن فارس**، فقد ذكر بأنَّ: (رجل ثقف لقف، وذلك أن يصيب علم ما يسمعه على استواء)[1].

وأمَّا **بحسب الاصطلاح** فيُعنى بها: مجموعة من الأشكال والمظاهر لمجتمعٍ معيّن تشمل عادات، ممارسات، قواعد ومعايير كيفيَّة العيش والوجود، من ملابس، دين طقوس، وقواعد السلوك والمعتقدات.

ومن وجهة نظرٍ أخرى، يمكن القول بأنَّ الثقافة هي: كُلُّ المعلومات والمهارات التي يمتلكها البشر.

إلَّا أنَّ الثقافة اليوم لها معنىً آخر غير موجود في كتب المتقدِّمين من العلماء والكتّاب العرب، فهي معنى مستحدث. ويُعنى بها: كُلُّ القيم المادّية والروحيَّة ـ ووسائل خلقها واستخدامها ونقلها ـ التي يخلقها المجتمع من خلال سير التاريخ. وبمعنى أكثر تحديداً، فإنَّه من المعتاد التمييز بين الثقافة المادّية (أي الآلات والخبرة في ميدان الإنتاج وغير ذلك من الثروة المادّية) والثقافة الروحيَّة (أي المنجزات في مجال العلم والفن والأدب والفلسفة والأخلاق والتربية.... إلخ) والثقافة ظاهرة تاريخيَّة، يتحدد تطوّرها بتتابع النظم الاقتصاديَّة الاجتماعيَّة[2].

(والثقافة **بالمعنى الخاص** هي: تنمية بعض الملكات العقليَّة، أو تسوية بعض الوظائف البدنيَّة، ومنها: تثقيف العقل، وتثقيف البدن. ومنها: الثقافة الرياضيَّة والثقافة الأدبيَّة أو الفلسفيَّة.

والثقافة **بالمعنى العام** هي: ما يتصف به الرجل الحاذق المتعلّم من ذوقٍ

---

(1) ابن فارس، أحمد ، معجم مقاييس اللغة، ج1، ص383.

(2) الموسوعة الفلسفيَّة، وضع لجنة من العلماء والأكاديميين السوفيتيين، ترجمة سمير كرم، ص153.

وحسٌّ انتقادي، وحكم صحيح.

أو هي: التربية التي أدّت إلى اكتسابه هذه الصفات. قال (روستان): العلم شرط ضروري في الثقافة، ولكنه ليس شرطاً كافياً، إنَّما يطلق لفظ الثقافة على المزايا العقليَّة التي أكسبنا إيَّاها العلم، حتّى جعل أحكامنا صادقة، وعواطفنا مهذّبة. ومن شرط الثقافة بهذا المعنى الملاءمة بين الإنسان والطبيعة، وبينه وبين المجتمع، وبينه وبين القيم الروحيَّة والإنسانيَّة)[1].

كما أشار صليبا إلى أنَّ لفظة الثقافة قد يراد منها معنى الحضارة، حيث قال: (وإذا دلَّ لفظ الثقافة على معنى الحضارة، كما في اللغة الألمانية، كان له وجهان: وجه ذاتي، وهو ثقافة العقل. ووجه موضوعي، وهو مجموع العادات، والأوضاع الاجتماعيَّة، والآثار الفكريَّة، والأساليب الفنيَّة والأدبيَّة، والطرق العلميَّة والتقنيَّة وأنماط التفكير، والإحساس، والقيم الذائعة في مجتمع معيّن، أو هو طريقة حياة الناس، وكلُّ ما يملكونه ويتداولونه اجتماعياً وبيولوجياً)[2].

ثانيا: العقل

لغةً: (العقل: نقيض الجهل. عقل يعقل عقلاً، فهو عاقل. والمعقول: ما تعقله في فؤادك. ويقال: هو ما يفهم من العقل)[3]، (والعقل: ضدُّ الحمق. والعقل: أن يعقل يد البعير، وهو أن يشدَّ وظيفه[4] إلى ذراعه. العقل:

---

(1) المعجم الفلسفي، جميل صليبا، ج1، ص378.

(2) المصدر السابق.

(3) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، ج1، ص159.

(4) الوظيف من الحيوان ما فوق الرسغ إلى الساق، وبعضهم يقول مقدّم الساق. المصباح المنير للفيومي، ص664.

الدية. والعقل: ضرب من الوشي. والعقل: أن يستمسك البطن، يقال قد عقل بطنه)[1].

(العقل: الحجر والنهي. ورجل عاقل وعقول. وقد عقل يعقل عقلاً ومعقولاً أيضاً، وهو مصدر، قال سيبويه: هو صفة. وكان يقول: إنَّ المصدر لا يأتي على وزن مفعول البتة، ويتأوّل المعقول يقول: كأنَّه عقل له شيء، أي: حبس وأيّد وشدّد. قال: ويستغنى بهذا عن المفعل الذي يكون مصدراً. والعقل: الدية. قال الأصمعي: وإنَّما سميت بذلك؛ لأنَّ الإبل كانت تعقل بفناء ولي المقتول)[2].

وأمَّا العقل في كلمات الحكماء والمفكّرين، فيطلق على جملة من المعاني المتباينة، فبعضهم يريد به العقل الفلسفي، وآخر يشير به إلى العقل العرفي، وثالث العقل التراثي، ورابع العقل المعرفي. ومرادهم **بالعقل العرفي** (هو: العقل الاستقرائي الذي كثيراً ما يلهج به العلمانيون عادةً، المعتمد على الاستقراء أو على متبنيات العرف المشهورة، وأمَّا **العقل التراثي** فالمقصود به: التراث الذي كثيراً ما يوجد في كلمات المفكّرين من العرب وغيرهم، حينما يتحدّثون عن العقل العربي أو العقل الغربي، والذي يعكس عاداتهم وتقاليدهم وطريقة تفكيرهم على مرِّ العصور.

وأمَّا **العقل المتخذ كأداةٍ من أدوات المعرفة**، فهو العقل القياسي الأرسطي، وهو عبارة عن: القوَّة المدركة للكلّيات في الإنسان، وهو معنى التعقّل الذي يمثّل مرتبة من مراتب الإدراك وراء الحسّ والخيال والوهم، وبه يتميَّز عن بقية الحيوانات. وللعقل بهذا المعنى له دور أساسي في

---

(1) الأهوازي، ابن السكيت، ترتيب إصلاح المنطق، ص265.

(2) الجوهري، إسماعيل بن حمّاد، الصحاح، ج5، ص1769.

التصوّرات والتصديقات، وبواسطته يتمُّ تكليف الإنسان، وبه يخرج من القوّة إلى الفعل، في حركة تدريجيَّة استكماليَّة، فيميِّز أوّلاً الحقَّ من الباطل، والصواب من الخطأ، والخير من الشرِّ، ثمَّ يسير على جادة التكامل بأفعاله الاختياريَّة)[1].

وأمَّا الفلسفي، فيريدون به أحد معنيين:

الأوّل: هو الجوهر المجرَّد عن المادّة مطلقاً، بحيث لا يكون حالاً فيها ولا محلاً لها ولا متعلّقاً بها، فهو مجرَّد عن المادّة ذاتاً وفعلاً، بمعنى أنَّه على مستوى الذات مجرَّد عن المادّة، وعلى مستوى الفعل مستغنٍ عن المادّة، وليس كالنفس الإنسانيِّة التي تحتاج في أفعالها إلى المادّة التي هي البدن، وهو المعبَّر عنه بالملائكة في لسان الشرع.

الثاني: وهو القوَّة العاقلة التي هي أداة النفس في إدراك الأمور الكلّية، وتدبير أمورها الدنيويَّة والأخرويَّة، والذي هو أحد أدوات المعرفة، وهو الذي ينقسم إلى نظريٍّ وعمليٍّ[2].

يقول **العلَّامة الحلِّي** في كتابه (شرح التجريد): (لفظة العقل مشتركة بين قوى النفس الإنسانيَّة وبين الموجود المجرَّد عن المادّة في ذاته وفعله معاً)[3].

---

(1) المصري، د. أيمن، أصول المعرفة والمنهج العقلي، ص64.

(2) انظر: العلَّامة الحلِّي، الحسن بن يوسف بن المطهّر الأسدي، الجوهر النضيد في شرح منطق التجريد، الفصل الثاني: ص25. الطباطبائي، محمّد حسين، بداية الحكمة، ص69. الجرجاني، علي بن محمّد، تحرير القواعد المنطقيَّة في شرح الرسالة الشمسيَّة، ص38، ابن سينا، أبو علي، منطق الشفاء (القياس)، ص501. آل ياسين، جعفر، الفارابي في حدوده ورسومه، ص268 ـ 274. الطباطبائي، محمّد حسين، أصول الفلسفة والمنهج الواقعي، ج2، 513، ترجمة السيّد عمّار أبو رغيف.

(3) العلَّامة الحلِّي، الحسن بن يوسف الأسدي، شرح التجريد (تحقيق الزنجاني)، ص251.

وهذا المعنى الأخير هو محطّ كلامنا، فهو المدرِك وهو الحاكم بالصدق والكذب والصواب والخطأ، وهو المؤثّر في حركة الإنسان وسلوكه.

ثالثا: النهضة

لغةً: (النُّهوضُ: البَراحُ من الموضع والقيامُ عنه، نهَضَ يَنْهَضُ نَهْضاً ونُهوضاً وانْتَهَضَ أي: قامَ...، وانتهض القومُ وتناهَضوا: نهَضُوا للقتال. وأَنْهَضَه: حَرَّكه للنُّهوض. واسْتَنْهَضْته لأَمر كذا: إذا أَمرته بالنُّهوض له... وأَنْهَضَت الرِّيحُ السَّحابَ: ساقَتْه وحملَتْه؛ قال:

باتَتْ تُنادِيه الصَّبا فأَقْبَلا تُنْهِضُه صُعْداً ويأْبَى ثِقَلا

والنَّهْضةُ: الطَّاقةُ والقوَّةُ. وأَنهضه بالشيء: قوَّاه على النُّهوضِ به... ونهَض الطائرُ: بسَط جناحيه ليطير... ومكانٌ ناهِضٌ: مرتفِعٌ.

والنَّهْضةُ، بسكون الهاء: العَتَبةُ من الأَرض تُبْهَرُ فيها الدابةُ أَو الإِنسان يَصْعَدُ فيها من غَمْضٍ، والجمع نِهاضٌ)[1].

ويمكن تلخيص أهم المعاني الواردة في معاجم اللغة فيما ينفع البحث بما يلي:

1 ـ نهضة: الْمَرَّةُ مِنْ نَهَضَ، جمع: نِهَاضٌ، نَهَضَاتٌ.

2 ـ عَبَّرَ عَنْ نَهْضَةٍ وَاعِيَةٍ: عَنْ قُوَّةٍ، طَاقَةٍ.

3 ـ كَانَ مِنْهُ نَهْضَةٌ إِلَى كَذَا: حَرَكَةٌ، وَثْبَةٌ.

4 ـ النَّهْضَةُ العَرَبِيَّةُ: الانْبِعَاثُ، الارْتِفَاعُ، التَّجَدُّدُ، التَّقَدُّمُ بَعْدَ التَّأَخُّرِ وَالانْحِطَاطِ.

---

(1) لسان العرب، ابن منظور، ج7، ص245. انظر: الصحاح، الجوهري، ج3، ص1112.

اصطلاحاً

من خلال ما تقدَّم من معنى النهـضة في اللغـة، يمكننـا تعريفهـا بمـا يحاكي المفهوم منها اليوم ويلائم المعنى اللغوي إلى حدٍّ ما، فقد ورد تعريفهـا بالمعنى المتداول اليوم بما حاصله: (النهضة هي: اصـطلاح حـديث وضـع للتعبير عن واقع معيّن، هو: انتقال أُمّةٍأو شعبٍ أو فردٍ مـن حـالٍ إلى حـالٍ أفضل)[1].

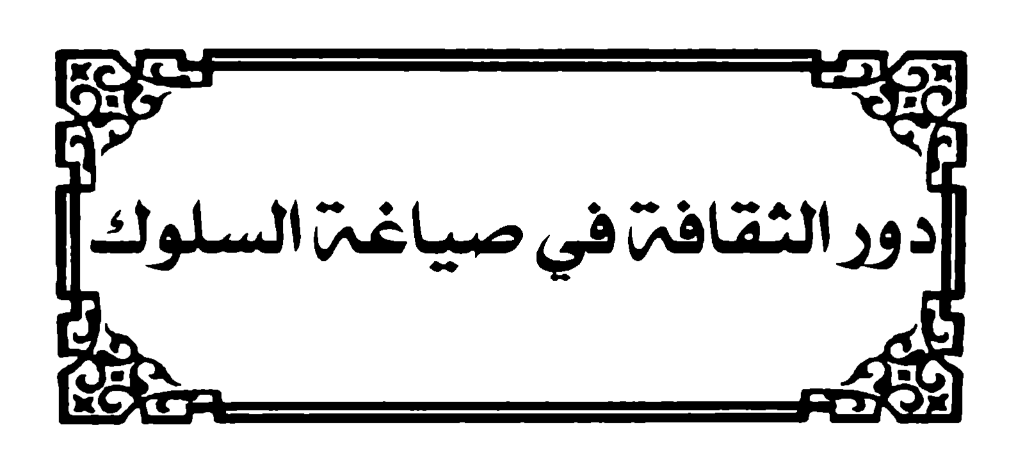
رابعاً: الشعب

(والشُّعَبُ: القبائِل. وحكى ابن الكلـبي، عـن أَبيـه: الـشَّعْبُ أَكـبرُ مـن القبيلةِ، ثمَّ الفَصيلةُ، ثمَّ العِمارةُ، ثمَّ البطنُ، ثمَّ الفَخِذُ.

قال الشيخ ابن بري: الصحيح في هذا ما رَتَّبَه الزُّبَيرُ ابـنُ بكّـارٍ: وهـو الشَّعْبُ، ثمَّ القبيلةُ، ثمَّ العِمارةُ، ثمَّ البطنُ، ثمَّ الفَخِذُ، ثمَّ الفصيلة؛ قال أَبـو أُسامة: هذه الطَّبَقات على ترتِيب خَلْق الإِنسانِ، فالشَّعبُ أَعظمُها، مُـشْتَقٌّ من شَعْبِ الرَّأْسِ، ثمَّ القبيلةُ من قبيلةِ الرَّأْسِ لاجْتماعِها، ثمَّ العِمـارةُ وهي الصَّدرُ، ثمَّ البَطنُ، ثمَّ الفخِذُ، ثمَّ الفصيلة، وهي الساقُ)[2].

(1) انظر: النهضة، حافظ صالح، ص4.

(2) لسان العرب، ابن منظور، ج1، ص501.


دور الثقافة في صياغة السلوك

ما هو السلوك؟

قبل الخوض في دور الثقافة، وهل لها دور أم لا؟ علينا أن نقف على مفردة السلوك، وماذا تعني هذه الكلمة؟

السلوك هو: النشاط البشري بألوانه الواسعة.

فالسلوك هو: الحركة الإراديَّة، والنشاط الإرادي الذي يفعله الإنسان بإرادته.

وإذا أردنا أن نتعمق ونحلّل فكرة الفعل الإرادي، نجد أنَّ معناه هو: السلوك الذي يريده الإنسان ويختاره من بين سلوكيات متعدّدة.

وقولنا (يريده ويختاره) يدلّ على عملية واعية شاعرة يستعملها الإنسان عندما يقوم بعملية الاختيار، بمعنى أنَّه ينظر بين سلوكيات متعدّدة، ثمَّ يتفحّصها ويقوم بانتخاب أوفقها به وأقربها إلى أهدافه ومآربه. فالإنسان عندما يفعل يكون فعله مسبوقاً بعملية نفسيَّة هي الإرادة والاختيار، فتحتم أن ننظر في عملية الاختيار والإرادة، كيف تتمّ، وعلى أيِّ معيارٍ تعتمد؟

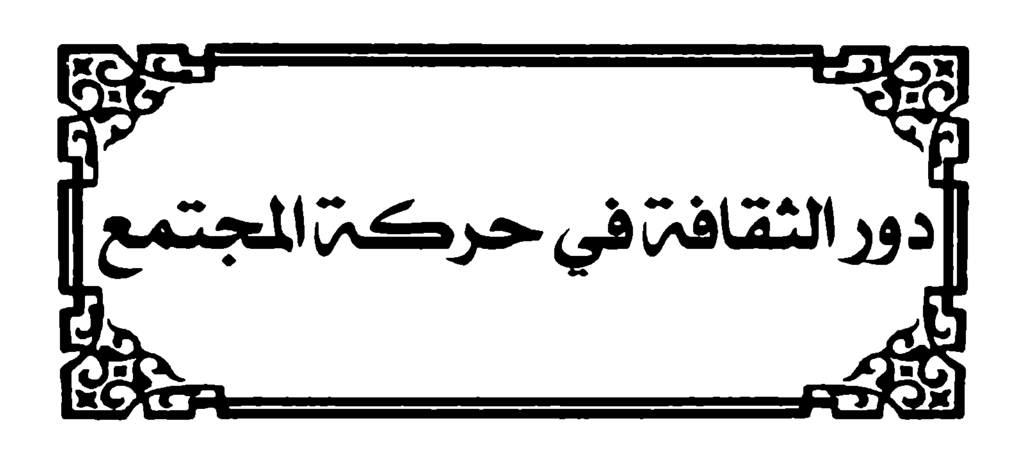
تتمُّ عملية الاختيار والانتخاب، أو ما يسمّى بالإرادة على مبدأ العلم والوضوح، فعندما يعلم الإنسان ويتضح له بحسب مدركاته أنَّ هذا الشيء ينفعه، فإنَّه ينتخبه ويقع عليه الاختيار، فيريده، وعندما يريده يتحرَّك نحوه.

ومـن هنـا يتـضح أنَّ الإرادة والانتخـاب متوقفـة على طبيعـة العلـم الحاصل له، فمن علم بأنَّ الـسجاير ـ مـثلاً ـ مـسلية وتـريح له أعـصابه، وتجعلـه يتحـسس حرّيتـه و.... تتحـرَّك فيـه الرغبـة والإرادة لاختيـار التدخين، بينما من يحصل له علم بأنَّها قد تـؤدي بحياتـه، كمـا لـو أخـبره الطبيب بأنَّ حالته الصحيَّة لا تسمح له بالتدخين، فـلا شـكَّ أنَّـه سـيترك التدخين. فطبيعة العلم الحاصل لدى الـشخص لهـا دور كبـير في حـصول الإرادة، وبالإرادة يحصل السلوك.

ولو أردنا أن نتفحص هذا القانون ونجريه على الفرد أو المجتمع، لوجدنا له تطبيقات كثيرة، بل من خلاله يحصل لنا الربط بين سلوكيات مجتمعٍ مـا وبين الثقافة التي يحملها، فإنَّ المجتمع عنـدما نجـد فيـه ظـاهرة سـلوكية معيّنة ـ سلبيَّة أو إيجابيَّة ـ نعلم بأنَّ هذه الظاهرة هي نتاج طبـيعي لثقافـةٍ ما جعلته يختار ـ وبإرادته ـ هذا السلوك أو ذاك.

فظاهرة الغش أو الرشوة أو السرقة أو الجريمة أو ما شاكل في مجتمعٍ ما، تدلُّ على ثقافة معيّنة يحملها أبنـاء ذلـك المجتمـع، بينمـا ظـاهرة الأمانـة والصدق والمحبّة والتواصل والوحدة واحـترام القـانون، تنبـئ عـن ثقافـةٍ أخرى يحملها أبناء المجتمع الآخر.

فمن تربّى في بيئةٍ تحمل ثقافة العفّة والشرف والعزّة، لا تراه يقترب ممَّا يتنافى مع هذه الأمور، وهكذا أمثلة كثيرة؛ وعليه فمفتـاح الإصـلاح هـو الثقافـة إذا اسـتطاع المـصلح المثقّـف أن يـزرّق ثقافتـه في وسـط الأُمّـة بأساليب هادئة محببة، ولا شكَّ أنّه سـيجني ثمارهـا، وسـيرى أنَّ المجتمـع سينتخب الأفعال التي يريدها منه؛ لأنَّه غـرس فيـه الـسبب، وإذا حـصل السبب فلا يمكن إلَّا يحصل المسبَّب.


دور الثقافة في حركة المجتمع

كُلُّ مجتمعٍ يمتاز بمجموعة من الظواهر الاجتماعيَّة الخاصّة بـه، والـتي يعرف بها، وتلوح في أفقه معالمها وتشكّلاتها.

وبهذه التمظهرات الاجتماعيَّة السلوكيَّة يمتاز مجتمعٌ عـن مجتمـعٍ، أو يشترك مع غيره.

فما هو سبب نشوء هذه الظواهر ـ سلبيَّة أو إيجابيَّة ـ في أُمّةٍ، وضمورها وتراجعها في أمم أخرى؟

لا تعدو أن تكون الظاهرة الاجتماعيَّـة إلَّا فعـلاً اختياريـاً تحـوّل إلى عادةٍ وعرف، نهج عليه أبناء تلك الأُمّة، فلابُدَّ من تطبيـق قواعـد الفعـل الاختياري ـ المتقدِّمة ـ عليها، لمعرفة كيفيَّة تكوّنها ونشوئها.

وتقدَّم أنَّ السلوك أو الفعل الاختياري ناتج عـن إرادة واعيـة شـاعرة، بمعنى أنَّ الإرادة والانتخاب لا يمكـن أن تـصدر عـن الإنـسان مـا لـم يكن هناك تصوّر وعلمٌ ما عن الفعل الذي يراد اختياره، ومعرفة بـه ولـو إجماليَّة. فما كان ـ بحسب علمي وثقـافتي ـ حـسناً وجمـيلاً وفيـه منفعـة، أرادته النفس واختارته، ومـا كان قبيحـاً وفيـه مفـسدة، أحجمـت عنـه ورفضته.

فطبيعة العلم بالأشياء، ونوعيـة الـصورة المرتـسمة عنـدنا عـن تلـك

الأشياء هي التي تحسّنها أو تقبحها؛ وبالتالي فالمجتمع الذي يتكسب بالربا ـ مثلاً ـ ما ذلك إلَّا بسبب صورته الحسنة التي رسمتها ريشة الثقافة في نفسه، حيث ينظر إلى زوايا حسنها فقط، وإنَّها تجلب له أرباحاً أوفر.

بينما نجد فرداً آخر أو متجمعاً آخر يفرُّ منه ويستقبحه، وما ذاك أيضاً إلَّا بسبب نوعية المعرفة والصورة العلميَّة للربا عنده، من وجود المفاسد والمضار الاجتماعيَّة والدينيَّة على الفرد والمجتمع، فيحجم عنه.

فثقافة المجتمع هي التي ترسم صور الحسن والقبح في أذهان أبنائه. ولهذه أمثلة كثيرة يمكن الاستفادة منها في توضيح هذه الفكرة وإثباتها.

وعندما ننظر إلى صحابة رسول الله ﷺ، نجد الكثير منهم يسيرون قبل إسلامهم في غير الوادي الذي ساروا فيه بعد اعتناقهم الإسلام، فما نجد من عمّار بن ياسر (رضوان الله عليه) إلَّا عبداً لبني مخزوم، لا همّ له إلَّا خدمتهم، ليعود مساءً فيشبع بطنه، ولم يكن يهدف في سلوكه لشيء، حتّى فيتكوين مستقبله.

وعندما ننظر إليه في حقبته الأخرى التي اعتنق فيها دين الإسلام الجديد، نجده إنساناً آخر، ترى فيه المبدأ والهدفيَّة والهموم الرساليَّة والكرامة التي لا يمكن أن يتنازل عنها.

وهذا ما نجده أيضاً في عينةٍ أخرى، وهو بلال الحبشي .. العبد الذي يباع ويشترى كمثل السلعة، ولا يحقّ له أن يتفوه بشيء إلَّا بمقدار ما يسمح به مولاه، فلا يملك حتّى سلوكه الشخصي، لكنه تغيّر !!

وهكذا أبوذر وصهيب وحنظلة و... .

فما هو الشيء الذي أعطاه لهم رسول الرحمة بحيث تحوّلوا إلى شخصيات أخرى؟!

إنَّما أعطاهم الثقافة التي هي الغذاء الحقيقي للإنسان، فبها تحيا روحه وعقله أو تموت.

وعندما كانت الثقافة التي تملأ زوايا نفوسهم هي ثقافة: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾.

فإنَّ هكذا ثقافة تزيّن لهم مجموعة من التصرفات والسلوكات، فلا محيص لهم عن أن يختاروا غير ما يناسب تلك المعرفة.

ولكن لمَّا جاء الطبيب الدوار بطبه، فشخّص نوع المرض الذي نخر نفوس الأُمّة وعقولها، قبل أن ينخر وضعها الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، بدأ برسم خطته في وضع دواء الأسقام المتفشية، وبحكمته المؤيَّدة من السماء، استطاع أن يضع يده على أساس المشكلة ليصلحها.

فاستبدل تلك الثقافة البائسة التي لا تعطي للإنسان قيمة تذكر، بل تجعله بمصاف العجماوات التي همّها علفها، وما الدنيا عنده إلَّا أيّاماً يأنس بها البشر، ثمَّ يؤول مصيرهم إلى العدم.

استبدلها بثقافة: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، فغرس في نفوسهم ثقافةً أخرى، تصوّر لهم أنَّ الموت ليس نهاية الحركة الإنسانيَّة، بل حركة الإنسان تستمرّ إلى ما بعد الموت.

فالدنيا ـ في ثقافة طبيب السماء ـ مدرسة للإنسان تظهر فيها النتائج بعد الموت، وهي مزرعة تجنى ثمارها في دار الآخرة، فكلُّ عملٍ فيها إنَّما هو نبتة لتلك الدار، فلا يأكل الإنسان في أخراه إلَّا ممَّا زرعت يداه، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ.

الإنسان في هذه الثقافة الجديدة خليفة الله تعالى في الأرض، وليس

سلعة مهينة، ولا كائناً حيوانياً يحيا بلا هدف، بل هو خليفة في الأرض، مراقَب ومسؤول من قبل من استخلفه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾، ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾.

فلمَّا اختلفت الثقافة، فهذا يعني اختلفت الصور المرتسمة على لوح الذهن، فبعض ما كان حسناً تألفه النفس صار ـ بسبب هذه الثقافة الجديدة ـ قبيحاً تنفر منه، وبعض ما كان قبيحاً صار حسناً تعشقه النفوس، وبدأت حركت المجتمع تسير باتجاهٍ آخر، وتهدف إلى أمورٍ لم تكن لتحلم بها حتّى في عالم الرؤيا.

ذلك المجتمع الذي يتخطفه الناس من حوله، صار ينظر إلى قصور كسرى وقيصر، المجتمع الذي يعلوه الهوان أمام صنم من حجارة صمّاء، يحمل رسالة السعادة إلى البشريَّة كافّة، ويشعر بالمسؤوليَّة أمام إنقاذها من الشرك، حتّى لو كلّفه ذلك حياته وإراقة دمه.

ماذا صنع الحبيب المصطفى ﷺ وماذا غيّر؟ فهل استبدل الآلات والمصانع، وأدخل إليها التكنولوجيا الحديثة؟ أم غيّر السياسة أم الاقتصاد؟

لا، وإنَّما غيّر الدافع والمحرِّك الذي من خلاله يتحرَّك المجتمع، إنَّما غيّر ثقافة الأُمّة.

وما نريد أن نستخلصه هو أنَّ الفارق الأساس بين الإنسان الهادف وغير الهادف، بين المجتمع المتحضِّر الذي يبني مستقبله بيده وبين غيره، إنَّما هو العنصر الفكري، والمنظومة المعرفيَّة، أو ما نعبِّر عنه بالثقافة، فإن صلُح واستقام صلُحت الأُمّة ـ فرداً ومجتمعاً، وإن فسد فسدت الأُمّة.

وفي ضوء ذلك، يمكننا أن نفهم مغزى الرواية التي تقول: «إذا فسد

العالِم فسد العالَم».

وعلى هذا الأساس، يمكن أن نفهم الانقلاب والتحوّل العظيم الذي حصل في شخصيَّة ياسر وسمية وابنهما عمّار، وبلال وأبي ذر الغفاري وصهيب وسلمان وحنظلة، بل أغلب أبناء المجتمع العربي، أو ما ينقل في تحوّل شخصية بشر الحافي، بسبب كلمات معدودة صدرت من بيت الحكمة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام **«لو كان عبداً لاستحى من مولاه»**، فإنَّ هذه الكلمات استطاعت بحكمة الإمام أن تغيِّر الصورة التي اختزلها بشر الحافي عن العلاقة ونوع الرابطة بين الله والإنسان، فليست هي علاقة الحاكم والمحكوم، بل هي علاقة بين العبد ومولاه المطّلع عليه، فعلى العبد أن يتحلى بالحياء في محضر المولى.

ويمكن أن تقيس حالات اختلاف البشر من حيث نظرتهم للموت، فبعضهم يعتبره كمالاً ولقاءً بالمحبوب الحقيقي وهو الله تعالى، وبعض يعتبره عين الحرمان والعدم وفقد كلِّ شيءٍ، وما ذلك إلَّا لاختلاف الثقافة، فثقافة الأوّل تصوّر له الموت نوعاً من الحياة المطلقة، التي يتحقق له فيها كلُّ ما يريد، وتشبّهه له بحالة الانتقال من وعاء ضيّق إلى وعاء أوسع، فهي شبيهة بانتقال الطفل من بطن أُمّه إلى عالم الدنيا. فإنَّ رحم الأُمّ أقل من الدنيا الخارجيَّة حجماً وغذاءً وراحة و...، فهكذا الدنيا بالنسبة إلى الآخرة، بخلاف ثقافة الآخر.

فللثقافة دور بالغ الأهمّية في حركة المجتمع، وطريقة سلوكه. ومن خلال الظواهر الاجتماعيَّة يتمُّ معرفة ثقافة المجتمع المنتجة لتلك الظواهر من قبل أهل الاختصاص.

مواصفات الثقافة الرائدة ومميزاتها

تختلف الأقوام والشعوب تبعاً لاختلاف ثقافاتها، وهكذا تقيَّم وتصنَّف في كونها من الأمم المتحضِّرة أو المتأخِّرة؛ بحسب طبيعة الثقافة التي تحكمها وتدير دفّة الحياة فيها.

ومن هنا، فعلى الباحث أن يشخّص أوّلاً الضوابط التي من خلالها يتمُّ تمييز الثقافة المتحضِّرة عن غيرها، أو ما هي المواصفات التي من خلالها يمكن أن نحكم على ثقافة شعب أو قوم حكماً إيجابياً، بينما نحكم على آخر بحكمٍ سلبي.

الثقافة ـ كما تقدَّم هي التي تحرِّك المجتمع في اتجاهٍ معيّن، تحرِّكه نحو النظام أو الفوضى، تحرِّكه نحو احترام القانون أو عدم الالتزام به والالتفاف عليه، تحرِّكه نحو حبّ الوطن والتضحية في سبيله أو جعله وسيلة للمصالح والمآرب، فسعادة الأُمّة وتقدُّمها وحكومة القانون فيها، مرهون بنوع الثقافة الحاكمة على أبنائها.

وعليه فلنتفق ـ ابتداءً ـ على نوع السلوك الذي نرغب في شيوعه في أوساطنا الاجتماعيَّة، وما هي الظواهر الاجتماعيَّة التي يجب أن تظهر على السطح في أُمّتنا، لنقوم بإيجاد أسبابها ونجذّرها في ثقافتنا.

ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ ما يرغب فيه الجميع هو أن نعيش في مجتمعٍ يسوده العدل والفضيلة، من الصدق والأمانة والمحبّة والتعايش مع مختلف مكوّنات المجتمع واحترام الآخر، وحفظ حقوق الجميع على أساس العدالة ...

وهذه الأمور لها أسبابها وقنواتها الرافدة لها، فلا تتحقّق ما لم تتحقّق تلك الروافد.

وإذا نظرنا إلى العمق، نجد أنَّ الأعراف والتقاليد والمعتقدات والفنون

لها الدور الأكبر في ذلك، فلا بُدَّ من دراسة معتقدات المجتمع أوّلاً، وبيان الصحيح منها من الفاسد، ثمَّ ضبط الأعراف والتقاليد على وفقها. بمعنى يجب أن تصاغ العقيدة أوّلاً بحسب معطيات القانون الذي يقرّه العقل، وعلى غرار العقيدة وعلى ضوئها تصاغ الأعراف والتقاليد، ويصاغ النظام الذي يحكم المجتمع.

وبذلك تحصل المصالحة بين القانون وبين أعراف وتقاليد الجماعة من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى تحصل المصالحة والوئام بين القانون والمعتقد الذي يؤمن به الفرد والجماعة؛ وفي المحصِّلة النهائيَّة نحصل على الوئام بين أجزاء المنظومة الفكريَّة من العقيدة والقانون والأعراف والتقاليد.

وبذلك لا نرى معالم الإزدواجيَّة في داخل سلوك الفرد والمجتمع، فينطلق البناء الثقافي من نقطة العقيدة والتأسيس لها، وبيان ما ترتكز عليه ونشرها في المجتمع لتكون الثقافة العقائديَّة قائمة على أسسٍ عقليَّة منضبطة، خالية من الخرافات والأوهام.

إلَّا أنَّ تصفيتها من ترسباتها، يحتاج إلى بيان المنهج الذي تعتمد عليه في دراستها، وإلى بيان الضوابط والقوانين الفكريَّة التي ترتكز عليها، وهكذا بالنسبة إلى القانون (الآيديولوجيَّة)، ومن ثَمَّ توضع الخطط والبرامج لبناء الأعراف والتقاليد في الوسط الاجتماعي.

ومن هنا نعتقد أنَّ الثقافة يشترط فيها أن تتصف بالانسجام في مكوّناتها، وعقلانيتها بألَّا تتعارض مع معطيات العقل، كما يشترط في الثقافة الحيوية والأمل والشعور بالمسؤوليَّة، بأن يمتاز المثقّف على غيره بالكفاح والنضال والكدح في سبيل تقدُّم أُمّته وتطويرها؛ من خلال وضع البرامج والخطط وتثقيف الأُمّة على ذلك، ونشر الفكر الذي يدفع

بالمجتمع نحو الطموح.

ليست الثقافة صنعةً نتعلمها، ولا خزيناً معرفياً لملء المجالس بالأحاديث والحوارات، وإثبات الذات من خلال المناقشات والجدل المرير.

بل الثقافة وعي للواقع، وتشخيص للحلول، وطموح في الإصلاح، فلا بُدَّ أن نبحث عن الوسائل التي تكوّن لنا هذه الخصائص الثلاث للثقافة التي بإمكانها أن تنقذ النفوس.

الثقافة التي تقضي على اليأس الذي دبَّ في النفوس فنخرها، الثقافة التي تقضي على روح البلادة والاستجداء من الغير، الثقافة التي تدفع بأصحابها نحو الكدح والنضال في سبيل خدمة أُمّتهم في كآفّة المجالات.

لا يمكن أن نكتفي بإطلاق الشعارات التي زادت في ترهل مشكلة الثقافة، بل لنقف قليلاً ونضع النقاط على حروفها، ولنتأمّل في المفردات الأولى التي يحتاجها الفرد منّا؛ ليبني ثقافة رصينة منجية تشقّ طريقها في هذا الوسط الأليم من دون أن يصيبها بجمم يأسه وتثبيطه.

المثقّف هو الذي يتمكن من تسخير ما لديه من معارف ومعتقدات وتقاليد وأعراف وفنون ـ والتي تشكّل في مجموعها مفهوم الثقافة ـ في خدمة أُمّته ومبادئها، وإيجاد الحلول والبدائل للتقدُّم والتحضّر.

فعليه أوّلاً أن يتقن هذا الفنَّ ـ فنّ التفكير ـ والتمرّس عليه بمهارة؛ حتّى يحلِّق في هذا الفضاء الرحب، فيعرف كيف يصل إلى الفكرة الصحيحة من بين عشرات الأفكار، وكيف يصطادها، ويعرف كيف يميِّز الفكر السقيم من السليم، وكيف يقيم الدليل على مراده؛ إذ كلُّ ما لدى الإنسان من خير فهو نتاج عملية التفكير، وكما يقول رسول الله صلى الله عليه وآله: **«إنّما يدرك الخير كلّه بالعقل»**. فإذا كان الخير منحصراً بالعقل، فهل يجوز

لمثقَّفٍ أن يهمل وظائف العقل وكيفيَّة عمله؟!

وبعد أن يتقن قوانين التفكير وكيفيَّة الاستفادة منهـا، ليخطـو خطـوةً للأمام، وليقف على مشارب المعرفة وقنواتها ليعلم ويرى عن كثبٍ مـا هي أصناف المعارف، وما هي القناة التي توصلنا إليهـا، ومـا هي الأدوات الـتي تستعمل فيها، وما هي الضوابط والقوانين التي تحكم كلَّ قناةٍ. فرُبَّ قـانونٍ حاكم في قناة معرفيَّة غير حاكم في أخرى.

فالقناة التي يستعملها الباحث في حقل الفيزيـاء مـن تجـارب وقـوانين رياضيَّة لإثبات نظريَّته لا يمكن أن يستفيد منها الباحث في التاريخ، بـل المسألة تختلف تماماً من حيث الأدوات والضوابط وطريقـة البحـث. وإن كان كلا العلمين يستفيد فيه الباحث مـن عمليـة التفكـير العقـلي؛ إذ لا محيص عن الاستنارة بنوره، والوصول من خـلال هديـه وتوجيهاتـه، فإنَّـه الدليل الوحيد.

وبعد التمرُّس على هاتين الخطوتين، نشرع بالتعرّف على حقيقة أنفـسنا ومبدئها ومنتهاها، وحقيقة العالم المحيط بنا، أو بنحوٍ آخر فلسفة وجودنـا في هذا العالم، لنبني رؤيتنا التفسيريَّة الكونيَّة عن الإنسان والحياة.

ثمَّ نتعرّف على القيم والمبادئ الأخلاقيَّة والاجتماعيَّـة الـتي ينـبغي أن يتحلَّى بها الإنسان طبق رؤيتنا الكونيَّة للإنسان والحياة.

ومن ثَمَّ لنقرأ المجتمع من جديد، ونرى في البدء أهم الإيجابيـات الـتي يتحلَّى بها، ونقف على قيمتها وفضلها وكيفيَّة الاستفادة منهـا، ثـمَّ نبحـث عن الطرق اللازمة التي تستحفظ هذه الإيجابيات وتمنعها من الزوال، وما هي السبل التي تزيد من انتشار هذه الإيجابيات وترسيخها.

ثمَّ بعد ذلك لننظر بعين الشفقة والإصلاح إلى أهـم الـسلبيات الـتي

يعاني منها المجتمع، فندرس أسبابها ومضارهاوطرق علاجها.

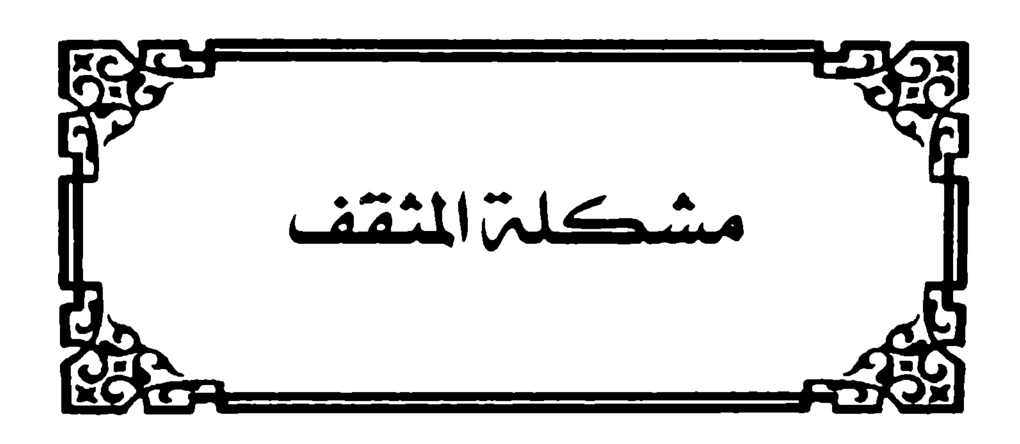
وإنَّما قدّمت دراسة الإيجابيات على السلبيات وأؤكد على ذلك؛ لئلا يصاب الواحد منَّا بالإحباط عندما يقرأ السلبيات قبل الإيجابيات، فيظنّ أنَّ أُمّتنا لا خير فيها يذكر أو يرتجى، فيسلك طريق الانزواء أو اللا أُبالية الذي سلكه الكثير من المثقَّفين.

ولا يحقّ لنا أن نطرح الحلول قبل أن نشخّص المشكلة ونبيِّن انتماءها المعرفي، بمعنى إلى أيِّ صنفٍ من العلوم والمعارف تنتمي، فإن كانت مشكلة فكريَّة عقائديَّة كمشكلة اللاانتماء الدِّيني أو العزوف عن الدِّين مثلاً، فلا بُدَّ أن نرجع إلى تلك العلوم ونظهّر نقاط القوَّة فيها من وجوه استدلاليَّة يقبلها العقل، كما علينا أن نجرِّد الفكرة من أيِّ خرافةٍ تذكر، ونطرحها كما طرحها المصدر الأساس، وهو العقل، وما جاء به النصُّ الدِّيني.

وإن كانت المشكلة نفسيَّة أو اجتماعيَّة، فكذلك لا بُدَّ أن نرجع إلى تلك العلوم وأصحابها، وعقد الجلسات معهم؛ لبيان أساس المشكلة وأسبابها، وكيفيِّة علاجها من خلال علاج الأسباب.

وخلاصة ما نروم الوصول إليه هو: إنَّ الثقافة لا بُدَّ أن تبنى ضمن منهج قويم يتناسب مع الفكرة والعقل والذوق السليم ضمن خطوات مدروسة، وعلى وفق ما تحتاجه الأُمّة في أُطر تقدمها وخلاصها من محنتها.

أمَّا الثقافة التي لا تمت إلى ذلك، وليس الهدف منها إحياء الأمم وانقاذ المجتمعات ممَّا هي فيه، فما هي بالثقافة التي تستحق أن تطلب، بل هي ثقافات عشوائية وُلِدت من عالم اللا شعور، وبقيت تدور في عالمها، وتحرِّك أصحابها من دائرة ظلام اللا شعور غير المدرَك حتّى لأصحابها.



مشكلة المثقف

قد يسلِّط الضوء على المشكلة التي تعاني منها الثقافة في أصل بنيتها وتركيبها، وأين تكمن مشكلتها، وما هي الآثار التي تترتب عليها على الصعيد النفسي والسلوكي الفردي والاجتماعي. وقد يكون حديثنا يسلِّط الضوء على المثقَّف الذي يحمل هذه الثقافة أو تلك، وما هي الآثار التي انعكست على شخصيته بسبب ثقافته.

ما ذكرناه من مشاكل في البناء الثقافي، يمكن تحسّسها في سلوك الأشخاص الذين ينتمون إلى الثقافة المعاصرة، فإنَّ الكثير من مثقَّفي العصر يكتب في غير ما تحتاجه الأُمّة، فهو يطلق العنان لقلمه يشرِّق ويغرِّب من دون حدود. فيكتب عن السياسة يوماً، وعن التاريخ آخر، ويصول في ميدان الأدب تارةً وفي أروقة الفنِّ أخرى، ويسجِّل رأيه في مجال الفلسفة ضمن مقال، وفي العرفان أو الكلام و... في مقالٍ آخر.

وتجد الأسس والمتبنيات التي اعتمدها في الأمس القريب يترفع عنها اليوم، ولا يجد في ذلك ضيراً ما دام هو ـ بحسب نظره ـ مشغولاً في الثقافة والفكر.

وقد تسأل عن هذا التشرذم في شخصية الكاتب الواحد ـ فضلاً عن المجموعة ـ ما هي أسبابه؟ وكيف بلغ هذا الحدّ؟

إنَّها الثقافة، نعم إنَّها الثقافة التي يحملها، عندما يفتقد المثقَّف البناء الثقافي المنهج، فلا تتوقع منه أن ينتج شيئاً ممنهجاً ومنظماً، وعندما تكون ثقافته التي تكوّنت شخصيته الثقافيّة منها غير منسجمة مع بعضها، فلا يمكن أن تكون كتاباته في ميادين شتّى على نسقٍ واحد، وتنتمي إلى قواعد وأسس متفقةٍ مع بعضها.

يعيش المثقَّف في عزلةٍ عن مجتمعه؛ لأنَّه لا يجد فيهم ما تحمله مخيِّلته عن المجتمع والنظام الاجتماعي، فهو يعيش خارج نطاق الواقع، وإنَّما هو فرد في دائرة الخيال، يقرأ عن الرفاه والترف والنظام الذي تنقله له الحروف والكلمات عن بعض الدول، فترتسم صورة ذلك في دواخله، ثمَّ يدخل هو في مخيِّلة نفسه ليعيش أحلامه هناك، ولا يجرؤ أن يخطّط ليخرج ما في مخيِّلته ويطبّقه في الواقع الذي ينتمي إليه.

وبذلك يرى الفرق شاسعاً بين ما يعيشه هو في خياله، وما يعيشه أهله وناسه في العالم الخارجي، فيفرّ من ذلك إلى حيث لا يزعجه أحد.. المكتبات.. الأماكن المغلقة...؛ فيكون غريباً في مجتمعه، وهكذا يظل يبحث فيما ينسجه له الخيال والترف الفكري، لا ما يملي عليه الواقع المعاش، وتفرضه عليه صورة الحياة التي يحلم بها، لا ما يتطلبه إصلاح واقع مجتمعه وحلّ مشاكله.

وهذه أزمة أخرى يعاني منها المثقَّف ـ غير العزلة ـ وهي مشكلة الترف الفكري، وترفعه عمَّا يحتاجه المجتمع.

وممَّا تقدَّم نستطيع أن نسجِّل مأساةً أخرى يعيشها المثقَّف في بلادنا، وهي عدم الشعور بالمسؤوليّة، وهي طامة كبرى تجترف في طريقها الكثير الكثير، ومن مختلف المستويات.

عندما نقرأ عن حياة بعض مفكّري الغرب، نجد أنَّهم وبسبب ثقافتهم يعيشون همَّ الإصلاح، فبدؤوا يعملون وبكلِّ جهدٍ لإنقاذ أُمّتهم ـ بغض النظر عن كونهم وصلوا إلى أهدافهم أم لا ـ وإلَّا فإنَّ المجتمع الغربي ما وصل إلى ما وصل إليه اليوم إلَّا بجهود أبنائه المثقَّفين والمفكّرين، لا بالترف الفكري الذي يمليه الفراغ وعدم الشعور بالمسؤوليَّة.

وهكذا عندما نطالع حياة المصلحين والمفكّرين من أبناء الشرق ـ المسلمين وغيرهم ـ أمثال غاندي واللاهوري والأفغاني وابن نبي والصدر والمطهّري والإمام الخميني، نجد أنَّهم استطاعوا أن يغيِّروا الواقع الخارجي بسبب ثقافتهم التي تشعرهم بمسؤوليَّتهم.

ليست مسؤوليَّة المثقَّف هي نقد الوضع الراهن والتشاؤم منه واليأس من إصلاحه، وإنَّما وظيفته هي التخطيط لتخليص أُمّته من محنتها ومأساتها ولو في مجالٍ خاصّ.

كلُّنا نعرف المشكلة، وكلُّنا لا نعرف الحلّ، أو لا نسعى إليه، فنحن جزء من المشكلة التي تحتاج إلى حلٍّ.

يأمل الشعب وتأمل الأُمّة من أبنائها المثقَّفين أن ينهضوا بالعبء، ويرمي المثقَّفون بالعبء على كاهل الساسة أو الدولة أو... وهكذا ندور في دوامة.

المشكلة ـ كما أشار إليها جملة من الباحثين ـ تكمن في ثقافة الأُمّة، فإن استطعنا أن نبحث عن الثقافة الصائبة النقيّة، المنسجمة في جميع منظومتها، ثمَّ بعد ذلك نلحظ الفرق بينها وبين الثقافة التي تربت عليها الأُمّة، فإنَّه سيكون الحلُّ واضحَ المعالم، والخطواتُ جليةً. فنعرف أساس الخلل ونبدأ برفعه، لكن بشرط أن نبدأ بتصحيح ثقافتنا أوّلاً.

التراكم أم البناء الثقافي

هناك ثمَّة فرق بين التراكم الثقافي الذي يقوم على تجميع المعلومات وتكثيرها على قاعدة: «**المثقَّف هو من يعلم عن كلِّ شيءٍ شيئاً، ويعلم عن شيءٍ كلَّ شيءٍ**»، وبين من يبني ثقافته لبنة لبنة، فيخطِّط لها، ويتفحصها قبل أن يجعلها جزءاً من شخصيته.

فالثقافة عند الثاني عبارة عن: منظومة فكريَّة تأتيه تباعاً كحلقات السلسلة، تجدها عنده منتظمة ومنسجمة مع بعضها، بخلاف الحالة الأولى التي قد تتقاطع فيما بينها؛ ولذا تشاهد أصحابها تتضارب آراؤهم؛ لعدم انسجام خزينهم الثقافي، وإنَّه مجرَّد تجميع معلوماتي معرفي غير قائم على أسس معيّنة، ممَّا يسبِّب فوضى معرفيَّة ثقافيَّة في الوسط الثقافي العلمي.

ولذا فمن خطوات الإصلاح ـ بل الخطوة الأولى ـ هو التأسيس لمشروع بناء الثقافة، ثقافة تصلح الفرد وتزرع فيه الانتماء لواقعه، وتشعره بالمسؤوليَّة تجاه أُمّته، فتصنع منه قائداً ودليلاً نحو صلاح المجتمع وخيره.

هناك سلبيات كثيرة للتجميع العشوائي للمعرفة، حيث يكون المثقَّف فيه تائهاً لا يعرف ما يريد سوى الشغف في المطالعة، والغيبوبة الكاملة عن آلام وآمال محيطه الذي يعيش فيه، فتتلاشى عنده سبل الرشد؛ فلا يمكنه أن يهدي نفسه ولا يسعف أُمّته، وتكون المعرفة عنده عبارة عن كثيبٍ هائل من المعلومات، أو كأنَّها خطوط المتاهة التي يجعلها أصحاب التسالي، فلا يعرف منها المدخل من المخرج.

وهذا ما نراه جلياً عند البعض عندما يتحدَّث، فلا يصل إلى المشكلة التي عناها، وإنَّما يحوم حولها، ولا يصيب الحلَّ لتلك الأزمة، بل يهوّلها في داخله.

وهذا ما تنبّهت له بعض الأمم منذ زمنٍ بعيد، فأخذت بزمام الأمور في الجنبة الثقافيَّة، وقنّنت أصول ثقافة شعوبها بما يخدم البلد والمجتمع، وعلى ضوئه وضعت سائر العلوم، الإنسانيَّة وغيرها.

إنَّ الشخصيَّة المتزنة هي ما توازنت فيها الثقافة، وانسجمت أطرافها. والشخصيَّة الواعية هي التي رسمت الثقافة فيها طرق مداخلها ومخارجها، فهي على وعيٍّ بما ينفعها وما يضرّها، وكيف تصل إلى منافعها، وتتخلص ممَّا يهدّد سلامتها، وبأيِّ أداةٍ، وضمن أيِّ برنامجٍ ومخططٍ.

وبإمكاننا أن نجعل مائزاً بين الشعوب التي استطاعت أن تتقدم، وبين غيرها ممَّن لم تتمكن من ذلك.

الثقافة ليست عبأً يثقل كاهل الأمّة، بأن يسرق أبناءها ليضعهم في أُطر المكتبات ورفوفها، بل الثقافة شعلة من الحيويَّة تأخذ بيد صاحبها ليكدح من أجل أُمّته، فيخرجها ممَّا هي فيه من وضعٍ لا تُحسد عليه.

فالأُمّة التي تمتلك أبناء يحملون ثقافة الإصلاح لا شكَّ مآلها نحو النصر؛ لأنَّ هؤلاء ستلتف سواعدهم ليخرجوا أُمّتهم من ظلمات التيه، فيعي الآخرون موقعهم، وواجباتهم ومسؤوليَّاتهم.

وخلاصة ما نريد الوصول إليه: إنَّ مفردة الثقافة يراد بها: مجموعة الأعراف والتقاليد والفنون والمعارف والعلوم الحاصلة لدى شخص كيفما اتفق. وهذا ما يعبَّر عنه بالتراكم الثقافي.

أمَّا البناء الثقافي، فهو عملية ممنهجة ومخطَّط لها مسبقاً، يراد لها أن تكوِّن للفرد شخصيَّة واعية حكيمة، تعي ما حولها، وتعرف ما يحاك ضدَّها، وكيف ترسم دربها ودرب أُمّتها.

وكلما كانت أسس الثقافة محكمة ومنهجها منظماً كان وعي الأُمّة أشد،

وقربها من الصواب أكثر.

وأمَّا كيف يتمّ ترشيد الثقافة حتّى نصل بثقافة أُمّتنا إلى مرحلة البناء الثقافي، فذلك ما يحتاج إلى تضافر جهود الخيرين من مثقَّفين وعلماء، يدرسون حالة المجتمع وظروفه وما يعانيه من مشاكل وما يطمح إليه من مستويات أفضل، ثمَّ توضع الخطة اللازمة التي تتكفل بعلاج الأزمة، وبناء المجتمع وإيصاله إلى مقامه اللائق به، في شتّى المجالات الفكريَّة والمعنويَّة والمادّية.

والثقافة هي التي لا بُدَّ أن تتكفل سعادة الفرد والمجتمع على مستوى العقل والروح والجسد؛ لكي تكون ثقافة منسجمة مع بعضها البعض، فلا حيف على الجسد لأجل العقل والروح، ولا كبت لهما وتضييع لأجل ملذات الجسد، بل لتكون الثقافة في داخل الفرد والمجتمع رمز العدالة والحكمة والحنكة السياسيَّة.

والبناء الثقافي الصحيح، هو الذي يخلق الثقافة الحكيمة والثقافة العادلة التي يسعد بفيئها العقل والروح والجسد، كلٌّ بما يستحق.

والبناء الثقافي الممنهج، هو الذي يفتح الطريق للخروج من ظلام الحيرة والغفلة، وهو ما لا يسمح به من أراد استغفالنا حقبة من الزمن.

والبناء الثقافي هو الذي يوحِّد الجهود ويسعف الطاقات من الهدر؛ لتكون جميعاً في مصبٍّ واحد، وهو خدمة هذه الأُمّة وأبنائها، وهذا ما لا يرضي الكثير ممَّن يعيش على مستنقع جهل الأُمّة وسباتها.

إلَّا أنَّ القرار لم يزل ولا يزال بيد أبناء الأُمّة أنفسهم، فما لم يرضوا بالهوان لم يحلّ ديارهم، وما لم يستسلموا أمام العدو لم يستعبدوا، وما لم.. وما لم.. ، وما لم نرضَ بما يُتخذ من قرارات في حقّنا لم تطبّق علينا.

فلا بُدَّ أن تبنى ثقافتنا من جديد على أساس حرّية الفكر، وما يرضاه العقل. ولا بُدَّ أن نؤسّس لثقافة ـ بقيادة العقل ـ تطهّرنا من ظلم أنفسنا حتّى نتطهر من ظلم الآخرين؛ لنعيش في ظلِّ ثقافة لا تقبع المرأة ـ فيها ـ في ظلِّ حيف الرجل، ولا الضعيف مستهلكاً في قدرة القوي، ولا الفقير مكدوداً في مشروع الأغنياء، بل ينعم الجميع بحقوقهم، والحكم يومئذٍ للعقل الذي يستند في حكومته إلى ثقافة القانون.

ما هي المشكلة؟

قد يُبتلى المجتمع بمصلحيه حين لا يشخصون أساس المشكلة التي يعاني منها، فيطلقون العنان لأفكارهم في التنظير وطرح الحلول لمشاكل أخرى تمثّل تداعيات أو نتائج المشكلة الأساس، وحينها لا يتمكنون من رفع الهمِّ الذي أثقل عاتق الأُمّة، فتظلُّ تعيش مأساتها جيلاً بعد جيل.

إنَّ النصر الذي تحلم به مجتمعاتنا ليس نصراً عسكرياً، ولا في مجال التكنولوجيا فحسب. وإنَّما تحلمبالنصر من الداخل؛ لأنَّها فقدت دوافع النصر الداخليَّة، وها هي تعيش الانهزام الروحي في كثير من المجالات، وعند القسم الأكبر والأغلبيَّة الساحقة من أبنائها.

وعلينا أن نلتفت إلى الزوايا المظلمة في دواخلنا، لننطلق منها إلى الفضاء الوسيع في مجال الإصلاح والانتصارات.

ولنستعن على بيان الفكرة بنماذج قد ملأ الأسماعَ الحديثُ عنها حدَّ الإشباع، لنقف معاً على عنصرٍ هامٍّ في حياة المجتمع، وفي نفس الوقت يمثّل أكثر من نصف المجتمع، حيث يمثّل أساس المجتمع.

إنَّها المرأة، نعم هي المرأة بكلِّ ما للكلمة من معنىً.

لقد كثُر الحديث ـ منذ عقود ـ حول المرأة ومظلوميتها، وحقوقها الـتي فقدتها في مجتمعاتنا، المتحضِّرة منها فضلاً عن غيرها.

وهكذا يبقى الحـديث عنهـا يـدور ويطـول بـه المـسير في ظـلِّ أروقـة المظلوميَّة والحقوق المنتهكـة، ولنـصل في نهايـة المطـاف إلى اليـأس عـن الإصلاح الذي نخر دعائم الإصلاح عند المصلحين؛ ليفروا في النهايـة إلى ترف الفكر، والعيش في غياهب الكتب وأروقة الثقافة المغلقة، والاعتزال عن المجتمع، تحت عشرات الذرائع التي نُرضِي بها ضمائرنا.

وهذه الحقيقة التي أفقدتنا صوابنا وتوازننا!!

لكن لو أردنا تخليص المرأة من مأساتها وواقعها المرير، الذي اعتـادت عليه حتّى كادت ألَّا تشعر به، وإذا أردنـا أن نخلّـص المجتمـع بـأسره مـن عواقب مأساة المرأة، فعلينا أن نجد الجذر لتلك المأسـاة، ونقـوم بإصـلاحه وترميمه.

تتحرَّك المرأة ـ كما هو الرجـل ـ مـن أسـباب الحركـة الطبيعيَّـة، فـإذا أرادت أن تقوم بعملٍ ما، فإنَّ هذا العمل لا يصدر إلَّا من أسبابه الطبيعيَّـة التي تجعل المرأة تتحرَّك نحو هذا الفعل دون ذاك.

ومـا تلـك الأسـباب إلَّا مجموعـة مـن الأفـكار والعـادات والتقاليـد والمعتقدات، التي تراكمت بوعي أو مـن غـير وعي لديهـا، فـصارت تلـك المجموعة التي نعبِّر عنها بـ (الثقافة)، هي التي تحرِّكها من عالم الـشعور أو اللا شعور.

فإن كانت تحمل ثقافة صائبة لا شكَّ صدر عنهـا الفعـل المـرضي، وإن كانت ثقافتها ليست إلَّا مزيجاً من الأباطيل، فلا نتوقع أن نرى منها سـوى ذلك. وإن كانت ثقافتها مشوّهة ـ كما هو الغالب ـ قد امتزج الحقُّ فيها مع

الباطل، والخير مع الشرّ، بالإضافة إلى شعورها بالكبت والحرمان والمظلوميَّة، فمن الطبيعي أن نراها ترسم في أفعالها صوراً متلوّنة وتحمل في دواخلها شخصيات متعدّدة؛ لأنَّ الثقافات المتناحرة وغير المنسجمة التي تراكمت في شخصيتها لا تظهر معاً ولا تختفي معاً، بل تظهر الواحدة منها، فتلقي بظلالها على التفكير، ومنها يصدر الفعل المناسب لتلك الثقافة، التي قُدِّر لها أن تبرز وتظهر على ساحة الفكر.

وما دامت المرأة لا تتحرَّك إلَّا من وحي ثقافتها، فعلينا أن نسلِّط الضوء على هذه الزاوية فيها، فهي أساس المشكلة، وبحلّها تُحلّ المشاكل الأخريات، وبإصلاح ثقافتها نكون قد أصلحنا لها حالها، ومكّناها من أخذ حقوقها بكلِّمشروعيَّةٍ، وألهمناها الحيويَّة والنشاط؛ لتمارس دورها كعضوٍ فعّال في بناء المجتمع، وكبانية للإنسانيَّة. فهي الأمّ، وهي الزوجة، وهي الأخت، وهي البنت، بل هي المربِّي الذي يصوغ لنا شخصيَّتنا شئنا أم أبينا.

فعلينا أن نجتمع ونوحِّد الجهود في رسم خطة عمل متكاملة، يوضِّح فيها الهدف العام للإنسان في هذه الأُمّة، ثمَّ تُقسّم الأدوار والوظائف التي توصل إلى هذا الهدف؛ ليعرف الرجل دوره ومسؤوليَّته في الحياة، كما تعرف المرأة دورها ومسؤوليَّتها.

ثمَّ يؤخذ دور كلِّ واحدٍ منهما، ويفرّع إلى وظائف فرعيَّة في مجالات الحياة المختلفة، من البيت والتربية والنشاط العلمي والصحي والإداري و.... .

ممَّا يعني أنَّ المجتمع لا بُدَّ أن تسوده ثقافة النظام، فلا بُدَّ من نظام يحكم البلد، ونظام يحكم المدينة ـ علاوةً على نظام البلد العام ـ ونظام يحكم الأسرة، ونظام يحكم الفرد داخل الأسرة.

ولا نعني بقولنا (يحكم) أن يجبر عليه ـ وإن كان لا بُدَّ من الإلزام ـ

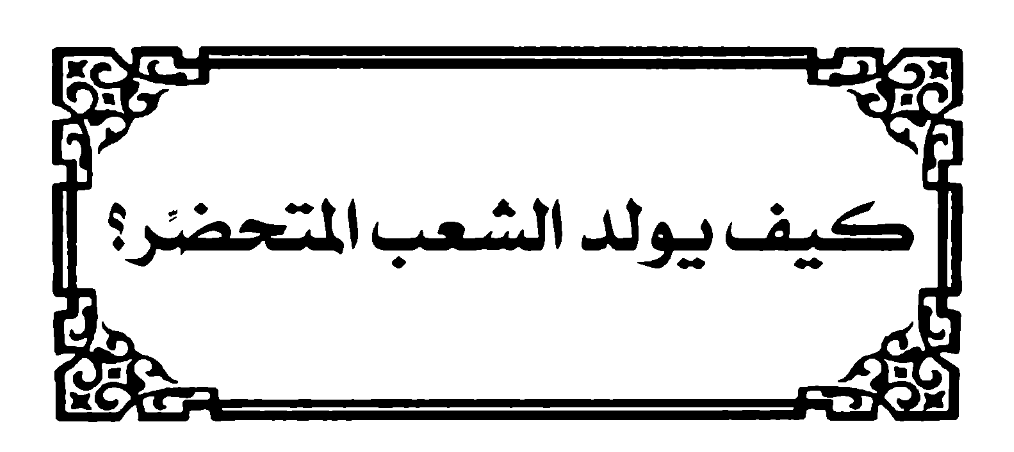
بل مرادنا أن نعمل على تحويل النظام من كلمة مسطَّرة على بياض الورق، إلى ثقافة تعيش في شخصيَّة الفرد والأُمَّة، وتحكم سلوكه.

وبهذه الطريقة يمكن أن ندَّعي لأنفسنا، بأننا وضعنا أقدامنا على طريق النجاة، والتحقنا بركب الأمم المتحضّرة.

وهذه الطريقة هي سيرة الأمم المتقدِّمة السالفة والمعاصرة، فعندما ننظر إلى أسبرطة اليونان في عمق التاريخ عندما آمنت حكومتها بأنَّ الدفاع عن الوطن لا بُدَّ أن يتحوّل إلى مسؤوليَّة عامّة؛ لأنَّ الخطر الذي يهدّدها كبير إلى حدٍّ ما، لم تعمد إلى أسلوب الجبر والاضطهاد ـ كما تفعل حكوماتنا إلى اليوم ـ بل عمدت إلى تحويل هذه المهمة إلى ثقافة راسخة في شخصيِّة الفرد الأسبرطي، وأنزلته في مناهجها التعليميَّة.

وها هي اليوم دول الاستعمار توجّه شعوب العالم الثالث المستضعفة عن بُعدٍ، حيث تريد من خلال الترويج إلى الثقافة التي تخدم مصالحها، فتسيِّر الأمم باختيارها نحو تحقيق مطامع المستعمرين.

ومن هنا، فإنَّ الحلَّ يكمن في رسم خطةٍ لبناء ثقافي منسجم مع نفسه، ويخدم أهداف الأُمّة، ويحقّق لها طموحاتها. ولنتخلَّ عن التراكم الثقافي المرقّع غير المنسجم، فإنّه جمع عشوائي لمعلومات ترجع إلى أسسٍ متناقضة، وتعتمد على مناهج معرفيَّة غير منسجمة؛ وبالتالي فلا نجني من جرّائها إلَّا الالتقاطيَّة، والإزدواجيَّة، والانكسار الداخلي، والهزيمة النفسيَّة، أو في أفضل الظروف أن نعيش التبعيَّة والانبهار بالغير.



كيف يولد الشعب المتحضّر؟

تتسابق الأمم نحو التقدُّم، فكلُّ أُمّةٍ تريد أن تحظى بقصب السبق في هذا المجال؛ لتكون صاحبة حضارة متميِّزة، فيبذل المفكّرون والعلماء من ذوي الاهتمام بهذه الأمور كلَّ ما بوسعهم؛ ليوصلوا أُمّتهم إلى مقام حضاري يناسب طموحاتهم.

وقد كتب وعمل الكثير في ذلك تحت عناوين مختلفة، فمنهم من يريد أن يبدأ من السياسة، ومنهم من بدأ بالدِّين، وآخر بالتعليم، وهكذا كلٌّ يسير بحسب ما يشخّصه في حلِّ الأزمة الحضاريَّة التي تعاني منها أُمّته.

فجمال الدِّين الأفغاني، يرى أنَّ أساس المشكلة هو التشرذم السياسي، الذي تأطّرت به أُمّتنا الإسلاميَّة والعربيَّة[1]، لأسباب مدروسة ومخطَّط لها من قبل المنتفعين من خارج الدائرة الإسلاميَّة وداخلها.

ولذا سخّر كلَّ قواه وطاقاته في سبيل ردم هذه الهوّة، فأخذ على عاتقه الدعوة إلى الإصلاح السياسي أوّلاً، وتوحيد الصفوف بين فئات المجتمع المسلم بكلِّ مكوّناته وأطيافه، كما كان يعتقد بلزوم تسلّح أبناء المجتمع بالعلوم الحديثة وتسخيرها في بناء المجتمع.

---

(1) انظر: الحركة الإسلاميَّة في القرن الأخير، الشهيد مطهّري، ص21 وص39. شروط النهضة، مالك بن نبي، ص41.

وقد يشترك إلى حدٍّ ما في هذه النقطة معه السيِّد **الإمام الخميني**، حيث يرى أنّ تخليص الأُمّة سياسياً من الأيادي غير الأمينة كفيل بوضعه على طريق التقدُّم.

وقد نجد بعض الفروق بين حركة هذين المصلحين العظيمين، من جهة إصرار الإمام الخميني على البناء الفردي للإنسان، وزرع روح التقوى بين أبناء المجتمع، بما له من أثرٍ كبيرٍ ـ بحسب نظره ـ في سير المجتمع وتقدمه، وتحقيق الهدف الأساس في خلاصه من التبعيَّة لغير الله تعالى؛ لأنَّ التقوى تجعل الفرد يشعر بالرقابة الغيبيَّة؛ فيندفع من ذاته في القيام بمسؤوليَّته.

كما نجد نظرةً أخرى قد تختلف عن نظرة السيِّد الأفغاني من جهةٍ، وهي نظرة الشيخ **محمّد عبده**، الذي يرى أنَّ مشكلة الأُمّة تكمن في ابتعادها عن روح الدِّين ومفاهيمه، فلا بُدَّ لمن أراد إصلاح المجتمع الشروع بالإصلاح الدِّيني من خلال إصلاح عقائده وإرجاعه بالوعظ إلى أخلاقيات القرآن الكريم ونبيّه[1].

بينما يرى **مالك بن نبي** أنَّ ما يراه الأفغاني وتلميذه محمّد عبده ليس هو المشكلة، بل هو أعراض المشكلة، فتشخيصهما يشابه ـ بحسب نظره ـ من أصيب بمرض السل الجرثومي، فبانت عليه الحمى، فقام الطبيب بمعالجة الحمى التي هي من أعراض المرض، وليست هي المرض الأساس[2].

فالمشكلة من وجهة نظر ابن نبي، ليست السياسة ولا ضعف الواعز الدِّيني، وإنَّما هما من أعراض المشكلة الأساس، والتي هي الحضارة.

---

(1) الحركات الإسلاميَّة في القرن الأخير، الشهيد مطهّري، ص49 ـ 54. شروط النهضة، مالك بن نبي، ص41.

(2) انظر: شروط النهضة، مالك بن نبي، ص41.

ومراده أنَّ مقوِّمات الحضارة الثلاث ـ كما يرى ابن نبي ـ لما ضُيِّعت وهُدِرت تسبب عنها أزمة سياسيَّة وأزمة اقتصاديَّة ودينيَّة وغيرها.

ومراده من المقوِّمات الثلاث للحضارة هي: الإنسان، والتراب، والزمن. فلو حرصنا على الاستفادة من هذه الثلاث بشكلٍ صحيح تشكّلت الحضارة من جديد، وعادت الأُمّة إلى مكانها الطبيعي في أوّل الركب.

وفي هذا المجال يرى **أبو نصر الفارابي** أنَّ الأُمّة الكاملة (المتحضِّرة)، هي الأُمّة التي يشترك جميع أبنائها ويتعاونون لنيل السعادة وتحقيق الرفاهيَّة في مختلف الأصعدة المعنويَّة والمادّية، وهذا يتطلب وجود رئيس متكامل في قواه العقليَّة النظريَّة والعمليَّة؛ ليتمكن من تسيير الأُمّة نحو خيرها وسعادتها.

ونظرة الفارابي هذه تشابه إلى حدٍّ كبير ما يذهب إليه ابن نبي حين يقول: لسنا بحاجة إلى طاقات فكريَّة وسواعد عمل، فإنّها موجودة بكثرة تهدر مع وقتنا المهدور، لكنا بحاجة ماسة إلى من يدير هذه العقول والسواعد في أحسن ظروفه الزمنيَّة والإنتاجيَّة المناسبة لكلِّ عضوٍ من أعضائه. وهذا **ما يسمّى بفكرة التوجيه**، والذي يحصل أو يمكن تحصيله بدفعة دينيَّة[1].

ويؤكد ابن نبي في كثير من كتبه على مشكلة الثقافة وأهمّية علاجها.

ولكن يبقى السؤال ـ مع جميع هذه النظرات المطروحة ـ ما هو الحلّ الجذري؟

وبعبارةٍ أخرى: ما هي المشكلة الأساس؟ وما هو حلّها؟

ونعود لنذكّر بما تقدَّم منّا، من أنَّ الفعل الإنساني هو الذي يصنع الخير والشرَّ، ويبني المجد أو يهدمه. وهذا الفعل أساسه الثقافة والمعرفة التي

---

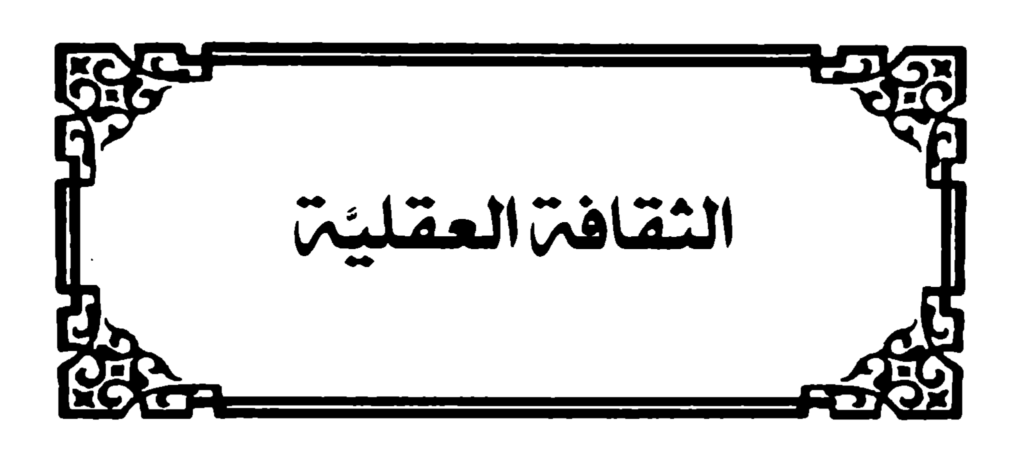
(1) شروط النهضة، مالك بن نبي، ص78.

يحملها الإنسان في داخله، فهي المحرِّك الأساس، فمن أراد الإصلاح فعليه بالبدء بإصلاح المحرِّك الأساس وهو الثقافة، وبنائها بشكلٍ صحيح.

ولا يمكن أن تحصل لنا ثقافة صحيحة نقيَّة من ظلمات الجهل ورواسب الخرافات، ما لم نصلح ـ أوّلاً ـ طريقة تفكيرنا.

كلُّ ثقافةٍ ومعرفةٍ إنَّما تنشأ في فكر الشخص بواسطة طبيعة تفكيره، ولولا التفكير ما حصل له من الفكر شيء، فلنعرف كيف يعمل الفكر، وكيف يحصل على معارفه وثقافته؟

فالعقل الذي هو أساس الخير، كما يقول النبيُّ المصطفى ﷺ: **«إنَّما يدرك الخير كلّه بالعقل»**، لا بُدَّ من احترامه ومعرفة طبيعة عمله وتقنينها بصورة صحيحة، لكي ينتج لنا الخير، والخير فقط.



الثقافة العقليّة

المراد من الثقافة العقليَّة التي نقصدها هنا ونتبناها في حركتنا، هي: المنظومة الفكريَّة الكاملة التي تبني الحركة العلميَّة والمعرفيَّة لدى الإنسان، والتيتنظّم السلوك الفكري والعملي للفرد والمجتمع.

قد يتصوّر البعض أنَّ هذا شيء من المثاليَّة أو... إلَّا أننا يمكننا أن نبيّن مرادنا، وأنَّه يتمتع إلى حدٍّ كبير، وكبير جدّاً بالواقعيَّة.

الثقافة العقليَّة هي عبارة عن المعرفة (الحكمة) النظريَّة والعمليَّة. فالنظريَّة وظيفتها تنظيم المعارف الحقّة وبنائها على أساس عقلي برهاني من خلال العقل وأدواته، والمعرفة العمليَّة وظيفتها معرفة الخير من الشرّ، وكيفيَّة اتّباع الأوّل ونبذ الثاني.

فالحكمة النظريَّة هي التي تثبّت لك المعتقد الحقّ المطابق للواقع الذي لا يشوبه الشكّ ولا يعتريه، بواسطة الدليل العقلي البرهاني القطعي. فبالبرهان يُثبت مفاصل الرؤية الكونيَّة الحقّة ـ الله، الكون، الإنسان ـ من دون مجاملة لطائفةٍ أو نصٍّ أو ...، ومن ثَمَّ تفريع النظام الآيديولوجي عليه، بحيث يصبح هناك انسجام كامل بين الرؤية الكونيَّة (المعتقد) وبين النظام (الآيديولوجيَّة).

وبعد ثبوت الرؤية الكونيَّة الحقّة، وتفريع النظام القائم على أساس

الواقع من الخير والشرّ، فيُسنُّ كلُّ ما فيه الخير للفرد والمجتمع، ويُمنَع كلُّ ما فيه المفسدة والشرّ. بعد ذلك لا بُدَّ من تطبيع الفرد؛ وبالتالي المجتمع على اتّباع الحقّ وسلوك الخير، وبذل الوسع في ذلك.

إلَّا أنَّ هذا يتطلب منَّا أن نقوم بالبحث والتحقيق في الطرق التي يقوم عليها التفكير في شقيه التعريفي والاستدلالي. فلا بُدَّ من بيان قوانين التفكير وكيفيَّة عمل العقل على وفقها، بمعنى كيف نتعرّف على الأشياء، بحيث نتصورها كما هي عليه في الواقع ونفس الأمر؛ لكي نستطيع بعد ذلك أن نحكم عليها سلباً أو إيجاباً، فإنك ما لم تعرف الفكرة لا تتمكن من الحكم عليها بالصحّة أو الفساد.

ثمَّ بعد معرفتها بشكلها الصحيح، كما هي عليه في الواقع ونفس الأمر، لا بُدَّ أن نتعرّف على طرق الاستدلال عليها، وكيف نثبت حقانيَّتها أو بطلانها؛ لكيلا يكون حكمنا عليها متأثراً بالعواطف والميول والعوامل الداخليَّة أو الخارجيَّة، بل على وفق البرهان العقلي القطعي.

وبعد معرفة طرق وقوانين التفكير البشري، السليم منه والسقيم، ننتقل إلى معرفة المناهج والقنوات التي يستقى منها العلم والمعرفة، ومعرفة مقدار ما يمكنها الكشف عنه، ومدى حجّية كاشفيتها، وهل أنَّ الرؤية الكونيَّة تُكتشَف بنفس الطريق والمنهج الذي تكتشف به الآيديولوجيَّة أو العلوم التجريبيَّة، أم لكلٍّ منهجه وطريقه؟

فإذا تمكن الباحث المثقَّف من هذين الأمرين ـ القانون والمنهج ـ يدخل بعد ذلك في حريم المعتقد (الرؤية الكونيَّة)، والتي تمثّل أهم أركان الثقافة. فيبدأ بعملية البناء الثقافي من الجذر، ومنه ينطلق في بناء النظام الذي يراد له أن يحكم الفرد والمجتمع، ويتربّى عليه.

فالثقافة العقليَّة لها دور مهم وكبير ومتفرِّد في توجيه الإنسان ـ فرداً ومجتمعاً ـ في مساره الصحيح، ووضعه في جادة التقدُّم والنهوض.

الثقافة العقليَّة تنظم عملية البناء الثقافي، وتمكنه من إيجاد رؤية كونيَّة رصينة مترفعة عن الخرافات والباطل، وبالثقافة العقليَّة يتمكن الإنسان من معرفة الخير والشرّ، فيُتبع الأوّل ويُجتنب الآخر.

والثقافة العقليَّة تعني وضع كلِّ شيءٍ في موضعه، وتعني الحكمة.

وكفى بها أنَّها تمكّن الفرد من معرفة مواطن الخلل في سلسلة الأفكار والشبهات الواردة من هنا وهناك، والتي تعصف في مصير الشعوب.

وقفة

عندمانتحدَّث عن النهضة، قد يتبادر إلى ذهن البعض أنَّ المراد هو الثورة ضدّ سياسة معيّنة، أو ثورة على وضع اقتصادي أو اجتماعي أو... .

ولكن ما نرنو إليه هو الثورة الحضاريَّة، التي تهدف إلى بناء الفرد والمجتمع من الجذر واللباب، لا من الشكل والقالب فحسب.

وهذا يستدعي معرفة الحقيقة الإنسانيَّة وزوايا كمالها، وكيفيَّة النهوض بكلِّ كمالٍ حتّى يصل إلى غايته التي ينال بها السعادة، فليست النهضة التي نرومها تكتفي بالالتفات إلى الحياة الآخرة والعزوف عن الدنيا؛ إذ لا رهبانيَّة في دين ربّنا الذي جاء به المصطفى ﷺ. كما لا تعني الانغماس في الدنيا والذهول عن الآخرة.

فليس محطّ نظرنا الجسد فقط، ولا الروح فحسب، ولا نريد التركيز وتكريس الهمم على التعمّق في عالم الفكر والتفكير، الذي لا نفع فيه إلَّا ملء المكتبات وتسويد بياض الورق.

نعم، النهضة التي يطمح إليها الشعب، هي نهضة حضاريَّة تنتشله من الأزمة الثقافيَّة التي طعنت المثقَّفين بالكسل، وغرست فيهم الازدواجيَّة ولوّحت لهم بالتبعيَّة.

الأُمّة التي تريد أن تصرع الهوان والذل بقدم الكرامة، عليها أوّلاً أن تعرف كوامن ذاتها، وكنوز مواهبها؛ لتتمكن من الاستفادة بما لديها وتسخيره في طريق مجدها.

لا بُدَّ أن نبني حضارتنا على أساس المؤهلات والمواهب الطبيعيَّة، التي جبلت عليها شخصيَّة الفرد الإنساني، من خلال الإجابة على التساؤلات: ممَّ تكوّن الإنسان؟ ما هي الأبعاد في شخصيَّته؟ ما هي الروافد المغذية لكلِّ بُعدٍ حتّى يصل إلى غايته، وكيف يحصل الانسجام بينها؟

ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الإنسان كائن ثنائي الأبعاد، له بُعدٌ مادي وبُعدٌ غيبي، له جسد يمشي ويتحرَّك، وله روح تفكّر وتحزن وتفرح.

ولا نجاح لمشروع ما لم يُولِ الاهتمام لكلا الجانبين، الاهتمام بالجسد وتوفير ما يحتاج إليه، والاهتمام بالروح وما يحقِّق لها الطمأنينة والارتياح، فللجسد متطلباته، وللروح متطلبات أخرى، والإخلال بمتطلبات أيٍّ منهما يسبِّب الحرمان من السعادة.

فها هو المراد من النهضة، وها هي أهدافها.

ولو رجعنا إلى حقيقة الإنسان، نجد أنَّ روحه وعنصره المجرَّد، ـ وباعث الحياة في وجوده ـ يحقِّق أفعاله من خلال قوى ثلاث، لكلٍّ منها مجالها وغاياتها، وحكمتها التي اقتضت وجودها في الكائن الإنساني.

قوى النفس الثلاثة هي: **الشهوة، والغضب، والعقل**. فالحكمة من وجود الشهوة هو جلب النفع، فتراها تميل بطبعها إلى ما يحفظ لها كيانها الفردي

والنوعي، من المأكل والمشرب الذي لا يمكن أن يستمر وجودها ـ كفرد ـ في هذه الدنيا ما لم تحصل عليه. كما تميل بطبعها وذاتها نحو حفظ النوع والنسل ـ من حيث تشعر أو لا تشعر ـ من خلال ما أودع فيها من شهوة الجنس.

فلم تكن الشهوة فينا هي الغاية الأساس، بل هي وسيلة لحفظ الفرد والنوع الإنساني.

وأمّا القوّة الثانية وهي الغضب، فالحكمة من وجودها دفع الضرر الخارجي الذي يحدق بالإنسان ـ فرداً أو مجتمعاً ـ بين الفينة والأخرى. فلم تكن النفس الإنسانيّة لتقف صامتة أمامها، بل تتحرَّك ـ وبطبعها أيضاً ـ نحو الدفاع والخلاص من هذا الضرر الذي يهدّد وجودها أو وجود كرامتها ومبادئها.

فلم تكن قوّة الغضب مطلوبة لذاتها، بل هي كسابقتها لحفظ الوجود الإنساني من التلف، وليستمر ويمارس نشاطه بكامل حرّيته.

تبقى القوّة الثالثة، وهي القوّة العاقلة ـ العقل ـ وهو الوجود المدبِّر لمملكة الإنسان.

فمن خلاله تطّلع النفس على الحقائق المحيطة بها وبواسطة حركته التفكيريّة توسع مداركها العلميّة، وبه تكاملت العلوم والفنون والصناعات.

ثمَّ إنَّ الحكماء قسّموا العقل إلى قوّتين، فلم يكن العقل عندهم قوّة واحدة، بل هناك قوّتان: أطلقوا على إحداهما العقل النظري، بينما سمّوا الأخرى العقل العملي[1].

---

(1) انظر: السياسة المدنيَّة، أبو نصر الفارابي، ص80. النفس من الشفاء، ابن سينا، ص284 ـ 285.

فالعقل النظري غايته الإدراك العلمي المعرفي، فبهذه القوَّة يتمكن من معرفة الأشياء ويطّلع على حقائقها، كما يتمكن من إدراك القضايا النظريَّة والعمليَّة.

أمَّا العقل العملي، فالحكمة من وجوده هو التحريك نحو العمل، من خلال إدراك القضايا العمليَّة الجزئيَّة؛ فإنَّ الإنسان لا يفعل ولا يصدر منه الفعل ما لم يعلم أنَّ هذا الفعل حسن وفيه منفعة له أو لأُمَّته. ومجرَّد علمه الكلي ـ بالعقل النظري ـ أنَّ الإحسان للآخرين فعل حسن، وأنَّ استعمال المريض للدواء فيه نفع له، والغش فعل قبيح، لا يحرِّك الإنسان، بل الذي يحرِّكه هو العلم بأنَّ هذا الفعل في هذه اللحظة فيه إحسان للآخرين، والإحسان فعل حسن، هو الذي يجعل الإنسان يتحرَّك، وأنَّ استعمال هذا الدواء الآن يخلصني من علَّتي، هو الذي يدفعني لتناول الدواء، وهكذا.

فالقوَّة الأولى وظيفتها الإدراك وتحصيل العلم، سواء كان له علاقة بالعمل، كما في مسائل الخير والشرِّ والنفع والضرر، أم لا علاقة له بالعمل، كالعلم بقوانين الطبيعة ووجود بعض الأشياء والأشخاص.

ومن أجل هذه القوَّة سُمِّي الإنسان كائناً مفكّراً؛ إذ بواسطة هذه القوَّة يشخّص ما ينفعه وما يضرّه، ومن خلاله يتعرّف على حقائق الأمور، فيعرف الحقَّ منها من الباطل.

فهو الذي يبني منظومة الإنسان الفكريَّة المعرفيَّة حول كلِّ ما يحيط به: الله، الكون، الإنسان، علاقته بما حوله، هدفه في هذه الدنيا، هل هناك حياة بعد حياتنا هذه؟ من أين بدأنا وإلى أين نذهب؟ ما هو النظام الذي لا بُدَّ أن نسير عليه؟

وإنَّما يتوصل إلى الأجوبة عن كلِّ ذلك بواسطة التفكير.

فالتفكير ـ الذي هو حركة عقليَّة ـ هو أساس تحرُّك الإنسان ـ كما تقدَّم ـ نحو الخير أو الشرّ، وهو أساس كلِّ معتقدٍ، باطلاً كان أم حقّاً، فيه نفع للمجتمع أو فيه هلاكه. فإمَّا أن يسلِّط إمكانياته وقدراته في إرضاء شقيقتيه من الشهوة والغضب، أو يكون سيِّداً حكيماً يسوسهما ويقودهما بعنايته وحكمته نحو الهدف الذي أُوجدا من أجله.

فأساس الخير العقل، كما أنَّ أساس الشر هو العقل. وكلُّ فكرةٍ حقّة قد نعمت الإنسانيَّة بخيرها هي نتاج التفكير العقلي، كما أنَّ الدمار والبؤس الذي مُنيت به البشريَّة هو من منعطفات التفكير العقلي.

وهذا ما يجعل المصلحين أمام الأمر الواقع، من أنَّ الإصلاح الجذري من هنا منطلقه وأساسه. فهل لنا أن نصلح السياسة أو الاقتصاد أو الظواهر الاجتماعيَّة أو الأمراض النفسيَّة التي أنهكت الأُمّة أو... ، من دون أن نصلح أساس جميع ذلك، وهو العقل وكيفيَّة عمله؟!

وهل يمكن أن نتصوّر ذلك؟! وهل السياسة والاقتصاد والتربية والإرهاب والانحراف والفساد الاقتصادي و... إلَّا نتاج عملية التفكير العقلي؟!

ومن هنا، فلا بُدَّ لنا أن ننحني إجلالاً وإكباراً للشخص الذي وضع يده على الجرح منذ مئات السنين، حين نصغي إليه في عمق التاريخ وهو ينادي بقومه: «**إنَّما يدرك الخير كلّه بالعقل**»، إنَّه النبيّ الأمّي محمّد بن عبد الله ﷺ، حين ظهر في أُمّة قد أعلنت إفلاسها ـ كغيرها ـ في ميادين شتّى، فأخذهم بهذا الشعار ليضعهم على رأس قوافل الحضارة.

وهل يصح لنا بعد هذا أن ننادي بالإصلاح قبل أن نصلح أداة الإصلاح؟!

لا يمكن للنجّار أن يصنع كرسياً متواضعاً ما لم يصلح قُدّومه

(مطرقته)، ولا يتمكن الفلاح أن يعمِّر أرضه ما لم يصلح معوله ومسحاته، وهكذا لا يمكن للأُمّة أن تستعيد مجدها، وتبني حضارتها ما لم تُولِ اهتماماً لإصلاح عقلها، وتعمل على معرفة كيفيَّة عمله.

الإصلاح الجذري

ذكرنا فيما تقدَّم أنَّ الفعل الاختياري منشؤه الثقافة، فهي التي تحرِّك الفرد والمجتمع من دائرة الوعي أحياناً، ومن دائرة اللاوعي واللاشعور غالباً.

كما قد بيّنا أنَّ الثقافة هذه، إنَّما هي صنيعة التفكير العقلي، فالثقافة التي نراها تحكم بعض المجتمعات إنَّما هي حصيلة تفكير بعض أبنائها، فإن كان تفكيرهم يهدف إلى خير الأُمّة وتقدمها وتحقيق العيش الرغيد فيها خرجت نتائج تفكيرهم في هذا المجال، ثمَّ أنزلوه بأساليب خاصّة ـ كما سنتعرض لها ـ إلى وسط الأُمّة، حتّى تحوّلت هذه الأفكار إلى ثقافة تحرِّك المجتمع بأسره نحو الخير.

وعندما نرى ثقافة بعض المجتمعات تسير في الطرف الآخر، من الغش والانتهازيَّة وعدم مراعاة الآخر و... ، فلا شكَّ بأنَّ هذه الثقافة هي الأخرى نتيجة بعض العناصر الفاسدة في الأُمّة التي سخّرت عقلها لمصالحها الخاصّة، واستطاعت أن تبثَّ هذه الثقافة من خلال سلوكيات معيّنة.

وما نريد الوصول إليه هو: كيف نستطيع أن نجعل العقل البشري يسلك طريقاً ـ في تفكيره ـ يوصله إلى نتائج صائبة فيها الخير له ولأُمّته؟ ثمَّ بعد ذلك كيف نوصل هذه النتائج إلى الأُمّة، ونجعلها ثقافة حاكمة فيها؟

فإذا كانت الثقافة هي المحرِّك الأساس لسلوكيات المجتمع والفرد، فلا

بُدَّ أن تكون هي نقطة البحث الإصلاحي. وبما أنَّها نتيجة طبيعيَّة لطبيعة التفكير السائد في تلك الأُمّة، ومن خلال طبيعة التفكير تتشكّل عناصر الثقافة من العقائد والتقاليد والأعراف والفنون، فلا بُدَّ من تقنين عملية التفكير أوّلاً، بأن تجعل لها ضوابط لتصحيح حركتها؛ لنضمن سلامة النتائج المتوالدة، والتي ستكون في المستقبل ـ القريب ـ جزءاً من ثقافة الأُمّة.

أمَّا إذا رفعنا اليد عن هذه النقطة الأساس ـ كما هو الحال عندنا ـ فسوف نهتف بإصلاح ونئن ونشكو من التدهور والتراجع من دون جدوى؛ لأنَّ ثقافتنا ـ أعرافنا، تقاليدنا، معتقداتنا ـ ليست تحت سيطرتنا، ولسنا نحن الذين نضع مفردات بنائها وبرامجها وأهدافها، بل هي تصاغ ويُخطَّط لها خارج حدود مملكتنا، وتهدى إلينا ضمن برامج معيّنة، فما علينا إلَّا أننأخذها ـ ببساطتنا وطيِّبتنا وحسن ظننا ـ فنسير عليها وفق ما يراد لنا، ومع ذلك نهتف بالإصلاح! فلا نرى نتائج النجاح.

«**ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمنّي، ولكن الإيمان ما خلص في القلب، وصدّقته الأعمال**»، حكمة عظيمة تصدر عن أعظم مصلح عرفته البشريَّة، النبيّ محمّد ﷺ، فمجرَّد تمنّي حلول فكرة وثقافة مكان أخرى، أو مجرَّد التظاهر بزيِّ المفكّرين والمصلحين، وتسطير الألقاب والعناوين، لا يغيِّر من الواقع شيئًا، بل لا بُدَّ من صفاء الفكرة ووضوحها وخلوصها من أيِّ شائبةٍ في القلب، ثمَّ لا بُدَّ من قرنها بالعمل .. لا بُدَّ أن تبدأ حركتها على متن الواقع.

أمَّا أن ندعو إلى ثقافة ولا نسير بهديها، وننقد أخرى ونلاصق أخلاقها، فما هذا إلَّا الازدواجيَّة المقيتة.

ولنعد إلى ما كنَّا فيه، فعلينا أوّلاً أن نطهّر الأداة المولِّدة للثقافة من شوائبها؛ لتصبح نقيَّة متعالية عمَّا يشينها، ويسيء إلى الفرد والمجتمع؛ لتصبح ثقافتنا إشراقة أمل المستقبل تشع من بين مفاصلها.

نعم، ثقافتنا هي سلاحنا في استرداد حقوقنا، وهي الواعز الذي يشعرنا بالمسؤوليَّة تجاه واجباتنا.

لقد استطاعت بعض دول العالم الآخر أن تنزل قوانين التفكير السليم وأساليبه وطرق الوصول إلى المعلومة إلى رياض الأطفال، وتعويدهم على ممارستها، وأصبح التعليم عندهم يعني كيفيَّة الوصول إلى المعرفة والعلم، لا كيفيَّة حفظها وتدوينها حين تأتي جاهزة.

وهذه هي الخطوة الأولى التي لا بُدَّ أن نصل إليها، فلتكن ثقافتنا وبرامجنا كيف نفكّر؛ لنصل إلى العلم والثقافة، لا أن نقرأ ونحفظ ما أنتجه الآخرون .. كيف نبتكر ونصنع، لا كيف نستورد ونستهلك ما يصنعه الآخرون.

ينقل ابن ورّام في مجموعته أنَّه: (أصابت أنصارياً حاجة، فأخبر بها رسول الله ﷺ، فقال: ائتني بما في منزلك، ولا تُحقِّر شيئاً. فأتاه بحلس[1] وقدح، فقال رسول الله ﷺ: من يشتريهما؟ فقال رجل: هما عليَّ بدرهم. فقال ﷺ: من يزيد؟ فقال رجل: هما بدرهمين. فقال: هما لك. ابتع بأحدهما طعاماً لأهلك، وابتع بالآخر فأساً. فأتاه بفأس، فقال ﷺ: من عنده نصاب[2] لهذا الفأس؟ فقال أحدهم: عندي. فأخذه رسول الله ﷺ،

---

(1) الحلس: كساء يجعل على ظهر البعير تحت رحله ... والحلس بساط يبسط في البيت. المصباح المنير، للفيومي، ص146.

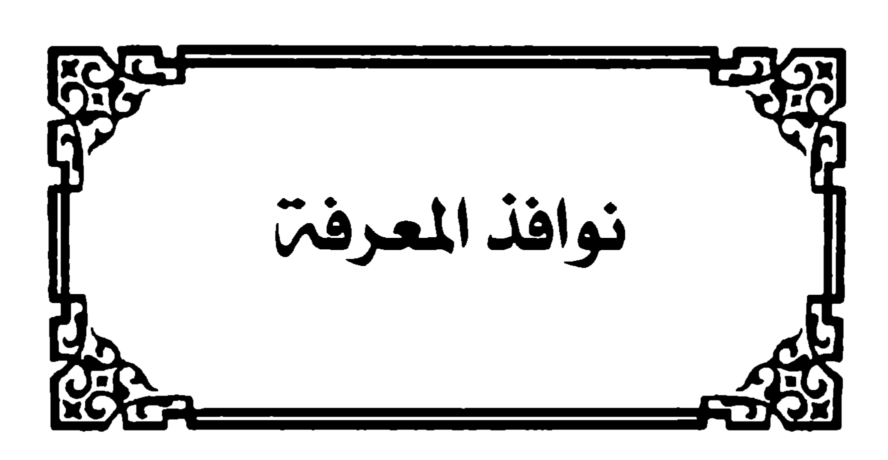
(2) نصاب ككتاب: مقبض السكين.

فأثبته بيده، فقال: اذهب واحتطب، ولا تحقّرن شوكاً ولا رطباً ولا يابساً. ففعل ذلك خمس عشرة ليلة، فأتاه وقد حسنت حاله. فقال ﷺ: هذا خير من أن تجيء يوم القيامة وفي وجهك كدوح[1] الصدقة)[2].

هكذا كان المصلح الذي بعثته السماء، يعطي الأُمّة مفاتيح الكسب ومفاتيح العلم ومفاتيح ما يحتاجونه ـ كلٌّ بحسب طاقته ـ؛ لتكون الأُمّة قادرة على تحمّل مسؤوليّاتها، ولا تظل تستجدي ما تقتات عليه.

(1) الكدح: الخدش جمع كدوح.

(2) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ابن ورّام)، ورّام بن أبي فراس المالكي الأشتري، ص53.



نوافذ المعرفة

قد يتدرب الفرد، بل المجتمع على نمطٍ خاصٍّ من التفكير، فلا يجيد غيره، ولا يصغي إليه، أو لا يستطيع الاستفادة منه؛ لاستيناسه بالنمط الأوّل.

وهذا يختلف من شخصٍ أو مجتمع لآخر، فرُبَّ شخصٍ اعتاد على النمط التجريبي، فهو يقيس المعرفة بمنهج التجربة، فكلُّ شيءٍ قامت التجربة عليه أو يمكن تجربته، فهو مقبول عنده، وإن لم يمكن ذلك ألقى به جانباً، ورُبَّ شخصٍ سلك طريقاً آخر من التفكير، فكُلّ فكرةٍ وثقافةٍ لم يدعمها البرهان العقلي، فهي ـ بحسب نظره ـ من زخرف القول وتوافه الأفكار، بينما نجد صنفاً ثالثاً ينأى بنفسه عن كلِّ ما لم تدوّنه كتب النصِّ الدِّيني.

فالتفكير عندهم حرفي، فلا يرى إلّا من خلال نظارة واحدة، تلقي بألوانها وظلالها على ناظره، فيرى الأشياء على وفق هذا النمط، ويقيس صحّتها وسلامتها من عدمها، بمرورها من هذا النمط التفكيري الخاص أو عدم مرورها.

وهذه من أعقد المشاكل التي ابتُلِيت بها المجتمعات في أكثر بقاع المعمورة، سواء من البلاد المتحضِّرة والتي تدّعي التقدُّم لنفسها، أم من غيرها، فهي مشكلة أخرى تحتاج إلى حلٍّ جذري، فكيف نجمع هذا الشتات والانقسام بين رجال الفكر والثقافة، لنشدّ السواعد بعضها

بالبعض الآخر، وليُسند بعضنا بعضاً؟!

لا يمكن أن تنهض الأُمّة وتقف على قدميها، ما لم نتخلص من هذه المعرقلات، كما لا بُدَّ من التنويه إلى أنَّ الحلول يجب أن تكون جذريَّة واقعيَّة، تغرس القناعة التامة والاعتقاد بحقانيَّتها عند جميع الأطراف، أمَّا مجرَّد التسالم على مبدأ التعايش السلمي، فقد لا يجدي؛ لأنَّه سطحي لا يؤدّي الغرض في تفعيل حركة النهضة والشعور بالمسؤوليَّة تجاهها، كما أنَّه قد يزول بعواصف الفتن.

فإنَّ من يؤمن بوحدانية التجربة في كسب المعرفة، عليه أن يؤمن بأنَّ بعض المعارف تعجز التجربةُ عن كشفها واكتسابها، كما في مسائل الرياضيات والقضايا التاريخيَّة والدينيَّة.

وهكذا على من يعتقد بانسداد الطرق المعرفيَّة إلَّا عن طريق البرهان العقلي، عليه أن يسلِّم بحقيقة التجربة وكاشفيتها وخدماتها الجليلة التي قدمتها للبشريَّة، وهكذا.

وكذا من لا يستقي فكره إلَّا من خلال النصِّ، فعليه أن يقرَّ بدور العقل في كثير من المعارف الدينيَّة، والتي لا يمكن إثباتها إلَّا به، كما عليه أن يعلم بأنَّ الدّين لا يخالف العلم والتجربة الحسِّية.

ومن أجل حفظ ثقافة المجتمع من القفز بقدم واحدة أو أن تنظر بعينٍ دون الأخرى، لا بُدَّ أن تُبنَى على أساس تنوّع طرق المعرفة، فإنَّ الخالق الحكيم تبارك وتعالى عندما أخرج الإنسان إلى الدنيا لا يعلم شيئاً[1]، فتح له نوافذ يطّلع من خلالها على ما يحيطبه؛ ليبني منظومته المعرفيَّة، ولمَّا

---

(1) إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، النحل: 78.

كانت الأشياء المحيطة به ليست على نسقٍ واحد، كانت الأدوات التي وُهبت له متنوّعة ومتعدّدة بتعدّد أطراف المعرفة، ولنمثّل لذلك بالحواس، فإنَّ الله تعالى جعلها خمسة؛ لأنَّ المحسوسات خمسة أصناف: (ألوان وأشكال ـ أصوات ـ روائح ـ طعوم ـ ملموسات)، فكانت الحواس خمسة؛ لكي تتكفل كُلُّ حاسةٍ بربطنا وتعريفنا بنوعٍ خاصٍّ من المحسوسات، فلا يمكن لحاسة السمع ـ مثلاً ـ أن توصلنا إلى معرفة الألوان والروائح، وليست الباصرة قادرة على تعريفنا على الأصوات أو الطعوم.

وهكذا نوافذ المعرفة وقنواتها (المناهج)، إنَّما تعدّدت لتعدّد المعارف، فبعض المعارف لا يمكن أن نطّلع عليها إلَّا بالبرهان العقلي، كوجود الخالق ووحدانيته ومسائل الرياضيات، وبعض المعارف لا يصطادها الإنسانإلَّا بالتجربة، كقوانين الطبيعة والأدوية الطبية وما شاكلها، وصنف ثالث لا يؤمِّنه إلَّا النصُّ، كالقضايا التاريخيَّة والأنظمة الدينيَّة والوضعيَّة، ورابع يستفاد بالحسِّ، وخامس لا يدرك إلَّا بالوجدان القلبي، كالحبِّ والفرح والحزن وحلاوة الإيمان.

علينا أن نربّي أطفالنا منذ الصغر على حسن التفكير، والاستفادة من جميع المناهج المعرفيَّة، وألَّا نحرم أنفسنا وأُمّتنا من بعضها، فتكون ثقافتنا مشوّهة أو ناقصة في بعض جوانبها؛ لأنَّها تستفيد من بعض المناهج، وتنأى بنفسها عن البعض الآخر.

وإذا تمَّ هذان الركنان ـ أساليب التفكير وقنوات المعرفة ـ وشاعا بين ثقافة الأُمّة، استطاعت أن تخيط ثقافتها بشكلٍ منتظم، فلا العلم يعني الاغتراب والعزوف عن الدّين، ولا التديّن يعني التخلّف والعودة إلى الماضي، بل هما جناحان بهما يطير المجتمع نحو صرح الحضارة، ونحو

سعادته، فبأحدهما يعمِّر الدنيا، وبالآخر يبني الآخرة، كما يقول الإمام الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام: **«اعمل لدنياك كأنَّك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنَّك تموت غداً»**(1).

مكونات الثقافة

من خلال التعاريف التي تذكر للثقافة، يصرِّح الباحثون بأنَّ الثقافة هي: نسيج من المعارف والاعتقادات والأعراف والتقاليد والفنون. فمجموع هذه الأمور تسمّى بالثقافة، فثقافة أيِّ مجتمعٍ عبارة عمَّا يحمله من علمٍ ومعرفةٍ ومعتقدات وأعراف وفنون وتقاليد.

ولكن التأمّل يدلّنا على أنَّ هذه المكوّنات الثقافيَّة ليست على حدٍّ سواء، بل للبعض تقدُّم على البعض الآخر، فإنَّ جميع هذه المكوّنات أساسها ومنشأ تكوّنها هو العلم والمعرفة، فالاعتقاد ـ مثلاً ـ كيف يتكوّن؟

إنَّما يحصل الاعتقاد من خلال مجموعة قضايا ومواضيع تتعرف عليها وتعلم بها، ثمَّ تعتقد بصحّتها أو بطلانها. فأسّها العلم، بل هي علم قطعي بأمور خاصّة.

وهكذا عندما نرجع إلى الأعراف والتقاليد الاجتماعيَّة، فهي عبارة عن: معرفة المجتمع بمنافع ومحاسن مجموعة أفعال، فيسعون إلى تطبيع الناس عليها ـ بوسيلةٍ أو أخرى ـ حتّى تتحوّل إلى ظواهر اجتماعيَّة لها قدسيتها ومكانتها في المجتمع. ونجد نفس الشيء في الفنِّ، فإنَّه معرفة وعلم خاصّ.

فمن الواضح جدّاً علاقة المكوّنات الثقافيَّة بطبيعة المعرفة التي تسود تلك الأُمّة.

---

(1) مستدرك الوسائل، الميرزا حسين النوري، ج1، ص146.

ومن هنا نستطيع أن نعرف من أين تبدأ مرحلة الإصلاح الثقافي، فما دامت المكوّنات جميعها ترجع إلى أُسٍ واحد وهو العلم، والمفاهيم التي يختزلها المجتمع من خلال مسيرته المعرفيَّة، فلا بُدَّ من البدء أولاً من العلم، وكيفيَّة تكوّنه، وغربلة الموروث المعرفي الذي تبتني عليه ثقافة الأُمَّة؛ وبالتالي مسيرتها الفكريَّة والسلوكيَّة.

وبما أنَّ لكلِّ شيءٍ قانوناً يميِّز الجيّد من الرديء، والنافع من الضارِّ، والحقَّ من الباطل، فهكذا العلم لا بُدَّ له من قانون نميِّز به حقَّه من باطله، ونافعه من ضارِّه؛ وبذلك يتغربل العلم: ﴿**أَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ**﴾[1].

وهنا عند هذه النقطة المفصليَّة ـ غربلة العلم وتقنينه ـ لا بُدَّ أن يقف الباحثون عن الإصلاح، ويتعرّفوا على القانون الذي يحكم عملية التفكير، وكيفيَّة كسبه للمعرفة.

إنَّ الأُمّة التي تتمكن من تنقية معارفها وثقافتها من الخرافة وكلِّ ما هو باطل، بحيث تكون عقائدها وتقاليدها والأعراف التي تحكمها نقيَّة من شوائب وترسبات الجهل والأوهام، هي الأُمّة التي تستطيع أن تبني حضارتها وتعيد مجدها.

أسباب ونتائج

لا نريد أن نكون متشائمين أو سوداويين في نظرنا إلى الواقع، بل أنا ضدُّ هذه النظرة البائسة؛ لأنَّها مدعاة الى الفشل والكسل، ولكن أتصور أن ننقد أنفسنا لننهض، خير من أن ينقدنا الآخرون فنسقط.

(1) الرعد: 17.

لننظر إلى واقعنا نظرة تمعّن، نظرة المحبِّ الذي يريد أن يبني، نظرة الطبيب الذي يريد أن يعالج، ولكن أنّى له العلاج ما لم يشخِّص المرض.

فلنتصور أُمّتنا إنساناً يشكو من بعض الآلم والأوجاع، فليس من الصحيح أن يُسلِمه الطبيب إلى قضاء الموت، فيغرس نفسه اليأس من الشفاء، ولا أن يتجاهل كلَّ أعراض المرض الذي ألمّت به، فيتركه من دون علاج؛ فتتسع رقعته حتّى يلتهمه الموت.

لا بُدَّ من طريق عقلائي يشخّص نوع المرض، من خلال قراءة أعراضه قراءةً فاحصةً دقيقةً، حتّى يكتب له ما يلزم من علاج.

إنَّ أُمّتنا تعاني من مجموعة آلام وعلل، تبرز فيها من خلال أعراضها على شكل ظواهر اجتماعيَّة سلبيَّة، والتي يعدّها البعض سبباً من أسباب تراجعنا وتخلّفنا، والحال أنَّها أعراض لأسباب تركن في العمق.

وعندما نترك غرف البحث المغلقة وطاولة المطالعة وقاعات الندوات والمؤتمرات، وننزل في وسط المجتمع؛ لنعيش همومه، ونتحرَّك بينمفاصله، تواجهنا عدد لا يستهان به من الخرافات التي أخذت حيّزها في النفوس، فصارت مشرباً لتفسير كثير من القضايا الاجتماعيَّة والدينيَّة وغيرها.

وأصبحت ـ ومنذ أمدٍ بعيد ـ الأفكار تنتقل بالتلقين لا بالتفكير والتأمّل، تملى على أُمّتنا بطرقٍ شتّى على وفق قناعات محدّدة؛ ولذلك يشيع فينا الحفظ دون الاستنتاج والتطوير.

إذا صادفتك حادثةٌ ما، تسارع إلى مسامعك بعض الأفواه؛ لتفسِّر لك الحادثة بنوعٍ من الأوهام والتمحلات، فيربطها البعض بالحظ أو البخت، وآخر يفسِّرها بتأثير الجن وتدخلاته و... ، تاركين وراءهم البحث عن الأسباب الواقعيَّة لتلك الحوادث. ففشلنا ـ في نظر هؤلاء ـ قسمة ونصيب،

ونجاحنا حظ وبخت، ...

فأين العقل، التدبير، بذل الجهد، التخطيط للمستقبل؟!

وكأنَّ كلَّ شيءٍ يأتي إلينا جاهزاً من وراء الغيب، ولا دور لنا، لا في فشلنا، ولا في نجاحنا. فتقعد الأُمّة تلوم حظَّها، ولا تحرِّك ساكناً، بل لا تفكّر كيف تخرج من محنتها.

ومن هنا تبرز ظواهر أخرى غير مرضية، من قبيل: عدم التخطيط لبناء المستقبل ـ الفردي أو الاجتماعي ـ فالأعمّ الأغلب يعيش يومه، ويعمل له، ويترك المستقبل للمستقبل.

ولماذا التخطيط والتفكير لبناء مستقبلنا، بعد ما كانت الاستخارة (الخيرة) تفتح لنا الطرق وتكشف لنا ستار الغيب.

ثمَّ نفسِّر عملنا هذا بالتوكل، فنلوم من يجهد نفسه في ذلك، وكأنَّ قادتنا لم ينصحونا بأن نعمل لدنيانا كأننا نعيش أبداً[1]، وكأنَّ القرآن لم يقرع سمعنا: ﴿**وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾[2]، ولم نقرأ أو نسمع: «**أبى الله أن يجري الأشياء إلَّا بالأسباب**»[3].

أصبحنا حيارى لا نعرف وظيفتنا، ولا ندرك ما هي مسؤوليَّتنا، فذهبنا نستقصي وظيفة غيرنا مادحين أو ناقدين، نبحث عن وظيفة القادة السياسيين والدينيين، وقد نتجاوز هذه الحدود، فنبحث عن وظيفة المعصومين و... .

ولم نسأل أنفسنا ـ يوماً ـ ما هي وظيفتي في هذه الدنيا؟ وظيفتي كأبٍّ

(1) ورد عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام: «**اعمل لدنياك كأنَّك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنَّك تموت غداً**» مستدرك الوسائل، الميرزا حسين النوري، ج1، ص146.

(2) القصص: 77.

(3) بصائر الدرجات، الصفار، ص26.

مربّي أو أمٍّ مربية، وظيفتي كولدٍ صالح، وظيفتي كمعلّم للجيل، وظيفتي كمؤمنٍ حامل لرسالة السماء، وظيفتي كمواطنٍ غيور، وظيفتي كفردٍ في هذه البلدة والقبيلة.

هذه وظيفتنا، إذا أهملناها فمن الذي يقوم بأدائها؟!

«**كلّكم راعٍ، وكلّكم مسؤول عن رعيته**»[1]، فأنت موظّف في أجهزة الدولة، ولك وظيفة أخرى تجاه والديك، وثالثة تجاه أولادك، ورابعة تجاه شريك الحياة، وتجاه البلدة، والقبيلة، والأرحام و...

وفي الختام، كلُّ واحدٍ منا مسؤول تجاه الأُمّة بأكملها: «**مَنْ لَمْ يَهْتَمَّ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ**»[2]، فلا بُدَّ أن نسأل أنفسنا: هل أدّينا هذه الوظائف الملقاة على عاتقنا أو بعضها؟ وبأيِّ نسبةٍ؟

وأكثر من ذلك فقد تجد الكثير الكثير، الذين لم يؤدوا حتّى حقّأنفسهم، بل قد لا يعرفون أنَّ لأنفسهم حقّاً عليهم في تعليمها ما تحتاج إليه، وحفظها ممّا يوقعها في مخاطر الدنيا أو الآخرة، وحفظها من الذلّوالهوان؛ فإنَّ الله فوّض للمؤمن كلَّ شيءٍ إلّا أنيذل نفسه، فإنّه من الحقوق التي لم يرخّص فيها.

ومن الظواهر المقيتة، أننا لا نعي عظم المخاطر التي تحيط بنا وتحدق بأُمّتنا، ولا نقرأ الخطط والاستراتيجيات التي تحاك ضدّنا، فنحسب كلَّ ابتسامةٍ لوناً من الأخوة، فلم نفرّق بين العدوّ والصديق!! من يريد خيرنا، ومن يريد الفتك بنا واستغلالنا !!

وفوق هذا وذاك، التبس الأمر على بعض مثقّفينا، فصار يتخبط بين أودية متباعدة، فلا يفقه فرقاً بين الخرافة والإيمان ببعض المغيّبات التي

---

(1) بحار الأنوار، العلّامة المجلسي، ج72، ص38. صحيح البخاري، ج1، ص215.

(2) الكافي، الكليني، ج2، ص164.

أثبتها العقل والنقل.

ولذا في نظر هؤلاء يعدّ التديّن تخلّفاً، فإذا أردت التقدّم والنهوض فما عليك إلّا أنتخلع لباس الدِّين، وترتدي...

بعد قراءة هذا لابُدَّ أن نرفع رؤوسنا بعزم، ولا ننحني أمام المصاب مهما كان عظيماً.

لنستبين أسباب هذه المأساة، وندع الخلافات جانباً، لنوحّد الجهود؛ لنقضي على هذه المظاهر الواحدة تلو الأخرى. بشرط أن نعرف السبب.

إنَّها الثقافة، نعم إنَّ الثقافة حين أصبحت تُصنَع في غير بلادنا، حين أضحت يُخطَّط لها بغير عقولنا، وتكتب بغير أقلامنا، فلا نتوقع حالاً أفضل من هذا؛ لأنَّ العدوّ لا يرحم.

ها هي ثقافة الغش والقتل والتكفير والتفجير، وسرقة بيت مال المسلمين، وعدم احترام القانون، والعري والميوعة والابتذال والخيانة و... .

من أين جاءت كُلّ هذه السلوكيات؟ وأين حيكت؟

نظرة خاطفة بتأمّلٍ إلى المسلسلات والأفلام التي أخذت بلبِّ شبابنا بل شيوخنا، وإلى الأفلام الكارتونية التي سحرت أطفالنا، واختطفتهم منّا ليل نهار.

ونظرة الى بعض أحزابنا وتكتلاتنا أين وُلِدت؟ ولماذا شُكّلت، ومتى تكوّنت؟

تجد أننا نسينا أنفسنا، لكن العدوّ لا يغفل عنّا، فأخذ يبني لنا ثقافتنا بما يخدم مشروعه ومطامعه، لنسير حيث وجهنا بكامل اختيارنا.

فإذا كنّا نبحث عن الحلول، فلنضع أيدينا على أثمن وأغلى جوهرة فينا، وهي ثقافتنا التي تحرّكنا، فنتحرّك من خلالها، لنغربلها بميزان الفكر،

ونرشّدها بمناهج التفكير المعرفيَّة، فنقوّم بناءها، ونصعد بها خطوة بعد أخرى على مهل.

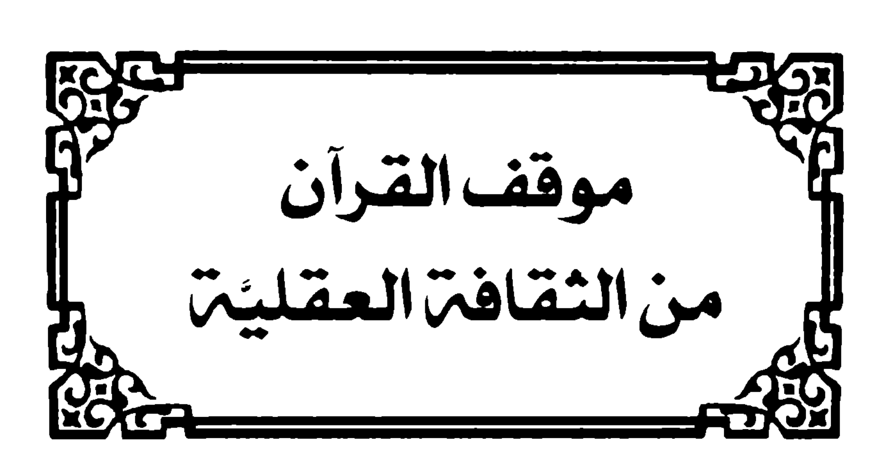
عند ذلك نتمكن من صياغة مكوّنات ثقافتنا، من عقائد وأعراف وتقاليد على وفق الموازين الصحيحة الحقّة.

إذا تمَّ ذلك، يمكننا أن نطالب أبناء أُمّتنا بعدم تضييع الوقت، فإنَّ له قيمة، وعدم بيع التراب الى الغير أو البوار، فإنّه أساس الكرامة، وعدم سحق كرامة الآخرين، لأنَّ «**حرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمة الملائكة**»[1]، وإنَّ كلَّ إنسانٍ «**إمّا أخٌ لك في الدّين، أو نظيرٌ لك في الخلق**»[2]، كما سجّلها أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب في مسمع الدهر وغرسها في عمق التاريخ.

---

(1) شرح الأخبار، القاضي النعمان المغربي، ج3، ص109.

(2) نهج البلاغة، الإمام عليّ عليه السلام، (عهده لمالك الأشتر)، ج3، ص84.



موقف القرآن
من الثقافة العقلية

اتفقت كلمة المؤرِّخين والمفسِّرين وجميع العلماء، على أنَّ القرآن نزل على الحبيب المصطفى ﷺ بشكلٍ تدريجي، فكانت تنزل الآية والآيتان والعشرة عليه، بحسب ما يتطلبه الموقف والمشروع الذي كان رسول السماء بصدده، وهو هداية الأُمّة والنهوض بها، وإخراجها من التخلّف المعبَّر عنه بالظلمات إلى نور العلم وهداية المعرفة.

وهذا هو عين ما يطمح إليه مصلحو الأُمّة، والذين يعيشون هموم الواقع المزري؛ ومن هنا فيحسن بنا أن نرى كيف تعامل كتاب الهداية، وكيف استطاع نبيّ الإصلاح أن ينجح إلى حدٍّ كبير في مهمته.

عندما نتأمّل في الطريقة التي اتّبعها القرآن في توجيه الجماهير الوجهة الصحيحة، نجد أنَّه ركّز على الإصلاح الفكري، وقام بإصلاح وترميم الأساس الذي ينطلق منه الإنسان في سلوكه، فكان القرآن وطوال ثلاثة وعشرين سنة من الزمن يشير ويؤكد على مسألة مهمة، وهي تسليح الأُمّة بثقافة العقلانيَّة والتفكّر، الذي من خلاله تستطيع الأُمّة أن تنير دربها وتضيء حركتها، فنجده ـ مثلاً ـ يلفت نظر الأُمّة إلى الأمور التي تحيط بها واستأنست بوجودها، بحيث أصبح النظر إليها أمراً روتينياً، فيأتي القرآن العزيز ليثير دفائن العقول حولها، ويدعو الأُمّة للتفكّر في مثل هذه

الظواهر التي تلامس حياتهم، ولم يدعهم إلى التأمّل بأمور أجنبيّة عنهم، وعن مكوّنات بيئتهم، ممّا يثير فيهم العجز عن بلوغه والسخريّة من هكذا دعوات.

ولذا نراه يقول في دعوة صريحة لأولى لبنات الثقافة العقليّة، وهي التأمّل وإعمال الفكر: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

فهذه الآية قد يقرؤها القارئ وهو في غفلةٍ عن مغزاها، وقد يقرؤها النبيّ ويبيّنها لأصحابه ولقومه، فيدعوهم إلى التأمّل فيما حولهم من مفردات الطبيعة، من:

- السماوات والأرض.
- اختلاف الليل والنهار.
- والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس.
- وما أنزل الله من السماء من ماءٍ، فأحيا به الأرض بعد موتها.
- وبثّ فيها من كلّ دابّةٍ.
- وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض.

ثمّ بعد أن يطرح هذه الظواهر الست، التي يراها الإنسان باستمرار، ويمرّ عليها بشكلٍ عفوي، تدعوه السماء هذه المرّة ليقف عندها؛ ليمعن النظر.

---

(1) البقرة: 164.

فإنَّ هذه الظواهر هي آيات عظيمات تخشع لها القلوب وتقشعر لها الجلود، وتنحني لها النفوس، ولكن لا تحصل كلُّ هذه الثمار إلَّا لثلة من أبناء الأُمّة، وهم الذين أعملوا عقولهم: ﴿**لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾.

بل يُتصيَّد من بعض النصوص أنَّ الهدف من إنزال الكتاب الكريم على قلب المصطفى ﷺ، هو إرجاع الأُمّة إلى فطرة العقل وإعماله والاستفادة منه، كما ورد عن أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام في إحدى خطب الجمعة، حيث قال: «**ضُرِب للناس فيه الأمثال، وصُرِّف فيه الآيات؛ لعلّهم يعقلون**»، وهكذا في سورة الرعد نجد هذا المعنى واضحاً في قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾[1].

فكلُّ مَثلٍ ذكره القرآن، وكلُّ آيةٍ فيه، إنَّما تهدف لتثقيف المجتمع وتعويده على التفكير، وإخراج العقل من سباته العميق، ونومه الذي غطّ فيه حقبة من الزمن.

فالقرآن الكريم يعطف أنظار الأُمّة إلى هذه الظواهر الكونيّة، التي يعيشون معها أغلب أوقاتهم ليتفكّروا فيها؛ حتّى يتبيّن لهم حقيقة الأمر، فإنّها آيات كبيرة لذوي العقول النيّرة.

وهكذا يتكرّر الخطاب القرآني حول التفكّر والتعقّل في مواطن أخرى،

---

(1) الرعد: 3 ـ 4.

كما في سورة النحل آية 10 و13، والعنكبوت 63، و الروم 24 و28، والزمر 42، والجاثية 5، و... .

إنَّما جاءت الآيات لترسم صورة جديدة لمفاهيم كانت منقوشة في أذهان الأُمّة، مفاهيم بعضها بلغ بها الحسن حدَّ التقديس، وبعضها بلغ بها القبح حدَّ الاستخفاف والسخريَّة.

فبدأت ريشة السماء تستبدل هذه الصور، فتُحسِّن ما كان مستقبحاً، وتقبِّح ما كان مستحسناً، ولكن لا على أساس الهوى ـ والعياذ بالله ـ وإنَّما على أساسٍ رصين، وهو التعقّل والتفكير الصحيح، والتأمّل الواعي.

ولذا نجد في مجتمع شبه الجزيرة صوراً قد زُيّنت وقُدّست؛ بسبب انعدام الموضوعيَّة والتفكير الصحيح المبني على أسسٍ موضوعيَّة، من قبيل سنَّة الآباء والأقدمين، فلا يسمحون لأحد أن يتجاوزها أو ينعتق من ربقة قانونها، بل لا يُسمح له أن يفكّر في مدى جدوائيتها، فنزلت الآيات تترى بين الفينة والأخرى لتنكس أعلامها الشامخة، وترسم قبح هذه السنَّة المقيتة على أساس أنَّها خالية من التأمّل، وبعيدة عن فطرة التفكير: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾[1].

فيبدأ القرآن بعملية هادئة في الإصلاح الاجتماعي، وهي عملية إصلاح الثقافة بأن تكون مبتنية على أساس التفكير، وكلُّ ثقافةٍ تُبنى على غير هذه الأسس، فهي ساقطة قرآنياً، لابُدَّ من استبدالها بثقافةٍ أخرى.

ولو تأمّلنا في كتاب ربّنا لوجدناه يُرجع ثقافة الشرك والإلحاد ـ والتي هي أقبح الثقافات وأحطها ـ إلى انعدام ثقافة التعقّل والتفكير﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ**

(1) البقرة: 170.

كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2]، وكذا نلمس هذا المعنى في سورة الفرقان: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[3].

إنَّ نظرة القرآن وطريقته في التعاطي مع الثقافة العقليَّة أمر يستحق البحث والتدقيق وإعادة النظر، فإنَّه يُرجع كلَّ تعاملٍ سيّء، وكلَّ ظاهرةٍ اجتماعيَّة سلبيَّة إلى مشكلةٍ في نظام التفكير: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾[4].

فإنَّ سبب الاستهزاء بالأوامر الإلهيَّة ـ كالصلاة مثلًا ـ في نظر القرآن هو عدم التعقّل، وكذا يُرجع القرآن الكريم ظاهرة سلبيَّة أخرى في المجتمع المدني إلى ثقافة عدم التفكير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[5].

وهكذا يرى القرآن أنَّ سبب الكذب على الله تعالى، هو انتشار وسيادة ثقافة عدم التفكير: ﴿... وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[6].

(1) البقرة: 171.

(2) يونس: 100.

(3) الفرقان: 43 ـ 44.

(4) المائدة: 85.

(5) الحجرات: 4.

(6) المائدة: 103.

وما أروع الآية الكريمة في وصفها للأُمّة التي لا تتبع قوانين العقل، ولا تسودها ثقافة التفكير، حين تصفهم: ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ**﴾[1].

بل يظهر من القرآن في مواطن متعدّدة أنَّ سبب بيان الآيات وإظهارها للأُمّة هو نشر حالة التفكّر، وتثقيف المجتمع على ثقافة العقلنة والتأمّل: ﴿**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[2]، وكذا ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[3]، وفي قوله: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[4].

وهكذا نجد ثقافة التفكير والتعقل واتّباع العقل وذمَّ الحياد عنه وبيان عواقبه، تملأ مساحات واسعة من آيات القرآن الكريم. وهذا لا يدلُّ على مدح العقل والتعقّل والتفكير فحسب، بل يدلُّ بوضوح على أنَّ طريقة الإصلاح التي اتّبعها القرآن الكريم هي غرس هذه الثقافة في الأُمّة، وتحسينها في نظر المجتمع، والسير على نهجها عملياً، وتعويدهم عليها؛ لتصبح جزءاً من ثقافتهم، بل أسّاً لثقافة الأُمّة؛ لتكون بعد ذلك ﴿**خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾[5].

وهنا نقطة مهمة لابُدَّ من التنويه عليها، وهي: إنَّ جميع المؤمنين الذين يشعرون بهمّ المسؤوليّة ينادون بالإصلاح، وإنّه لا يتمّ إلّا بالرجوع إلى

(1) الانفال: 22.

(2) البقرة: 242.

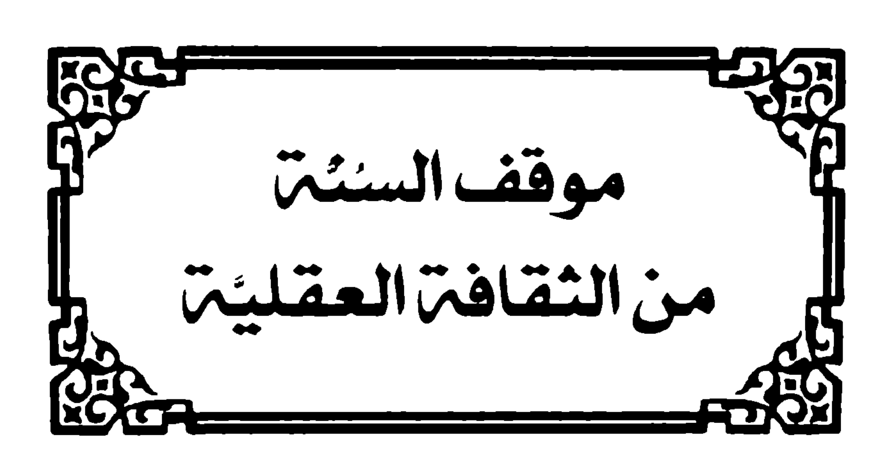
(3) يوسف: 2.

(4) الحديد: 17.

(5) آل عمران: 110.

القرآن والاستفادة منه، ولكن يبقى السؤال عريضاً يلحّ على الأذهان: كيف نرجع إلى القرآن؟ أو بعبارةٍ أدق ماذا يعني الرجوع إلى القرآن؟

لا يعني الرجوع إليه أن نكثر من قراءته فحسب، بل علينا أن نستفيد من نفس المنهج الإصلاحي الذي استفاد منه القرآن، وها هو سبيل القرآن الكريم لا يخفى على المتأمّل النبيه ـ كما ألمحنا ـ هو إصلاح الثقافة، ولا بُدَّ أن تكون ثقافتنا مبتنية على العقل والتفكير السليم المبتني على قواعد صحيحة، وإلَّا فإنَّ الذين ذمّهم القرآن، ونعتهم بعدم التفكير، وإنَّهم (لا يعقلون) هم في الحقيقة يتفكرون، ويستفيدون من عقوقهم، ولكن استفادتهم وتفكيرهم لم يكن مبتنياً على أسسٍ سليمة.


موقف السنة
من الثقافة العقلية

«من كان عاقلاً كان له دين، ومن كان له دين دخل الجنَّة»

الإمام الصادق عليه السلام

بعد وضوح موقف القرآن الكريم من الثقافة العقليَّة، ثقافة التفكير السليم والتأمّل والتدبّر فيما يحيط بنا وما يصدر عنّا، فلا أتصوّر أنَّ هناك من يشكُّ في موقف من أُرسِل بهذا الكتاب السماوي، وحمل تعاليمه، وبلّغها إلى الأُمّة، من هذه الثقافة وكيف تعامل معها؛ بحكم اتحاد المصدر والهدف الذي يراد الوصول إليه.

فمن غير الممكن أن يأمر القرآن بشيءٍ ويحثّ عليه، وتجد مبلّغ القرآن وحامله إلى أهل الأرض ومفسِّره لهم يأمر بخلافه أو يسير على غير هديه، كيف وقد وُصف نبيّ الإسلام بأنَّه قرآن يمشي على الأرض؛ لشدة ملاصقته لتعاليم القرآن، ومحاكاته لها.

ولكن علمنا هذا بكون المصطفى صلى الله عليه وآله يأمر بهذه الثقافة العقليّة ويحثُّ عليها، قد يقال بأنَّه علم إجمالي، فلا بأس بأن نقف تفصيلاً على بعض أقواله وسيرته، ونستوضح منها موقفه الصريح من هذه الثقافة.

وأوّل ما ينسبق إلى ذهني لأسوقه إلى القارئ الكريم قوله صلى الله عليه وآله: «إنَّما

يدرك الخير كلّه بالعقل، ولا دين لمن لا عقل له»[1].

ماذا يعني هذا الحديث؟ وما هي قيمة الثقافة العقليَّة عنده؟

إنَّ رسول الله ﷺ يحصر الخير كلّه باتّباع العقل .. الخير، بل الخير كلّه، خير الدنيا والآخرة، لا يُنال ولا يُدرك ولا يمكن الوصول إليه إلَّا بالعقل.

وهل يطلب أبناء الدنيا إلَّا الخير، وهل يريد طلّاب الآخرة إلَّا الخير ؟!

نعم، كلُّ إنسانٍ إنَّما يتحرَّك نحو الخير ولا يريد سواه، ولكن قد لا يعرف مصاديق الخير، فيلهث خلف شيءٍ ملؤه الشرّ، ولكن يحسبه خيراً له.

وهناك لفتة جميلة في الحديث، وهو قوله: **«لا دين لمن لا عقل له»**، فإذاً الجميع يطلب الخير، والخير وحده، ولكن يجهلونه. فيأتي المرشد، المنقذ، المنجي، والهادي من حيرة الضلالة؛ ليبيّن للأُمّة أنَّ الوسيلة الوحيدة التي توصلكم إلى الخير هي العقل، حتى الدين؛ فإنّه لا يمكن الوصول إليه من دون العقل.

فلابُدَّ من الالتفات إليه والتعرّف على طبيعة عمله، والقوانين التي تحكمه، وما هي الأمور التي تفسد حركته، فتخرج نتائجه على غير جهة الصواب.

ذات يوم بينما النبيّ ﷺ وسط أصحابه: **«وأثنى قوم بحضرته على رجل حتّى ذكروا جميع خصال الخير، فقال رسول الله ﷺ: كيف عقل الرجل؟ فقالوا: يا رسول الله، نخبرك عنه باجتهاده في العبادة وأصناف الخير تسألنا عن عقله؟ فقال ﷺ: إنَّ الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر، وإنَّما يرتفع العباد غداً في الدرجات وينالون الزلفى من ربِّهم على قدر عقولهم»**[2].

(1) تحف العقول، ابن شعبة الحرّاني، ص54.

(2) تحف العقول عن آل الرسول، ابن شعبة، ص54.

عندما يتقدم النبيّ ﷺ بالنصيحة والوصية لأحبّ الخلق إليه عليّ بن أبي طالب عليه السلام، بماذا يوصه؟ يقول: «**يا عليّ، إنّه لا فقر أشدّ من الجهل، ولا مال أعود من العقل...**»[1]، وفي حديثٍ آخر يقول ﷺ: «**صديق كلّ امرءٍ عقله، وعدوّه جهله**»[2].

إنّها حِكم عالية المضامين، تضع البلسم على الجرح، والنقاط على الحروف. نعم، إنّها تبيّن وتعالج أساس المشكلة وجذر الأزمة، إنّه العقل الذي أهملته الأُمّة.

لنتأمّل معاً في هذا الحديث الشريف، الذي يقول فيه الحبيب المصطفى ﷺ:

«ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل

فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل

وإفطار العاقل أفضل من صوم الجاهل

وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل

ولا بعث الله رسولاً ولا نبيّاً حتّى يستكمل العقل، ويكون عقله أفضل من عقول جميع أُمّته، وما يضمر النبيُّ في نفسه أفضل من اجتهاد جميع المجتهدين.

وما أدّى العاقل فرائض الله حتّى عقل منه، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل

إنَّ العقلاء هم أولوا الألباب الذين قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إنّما يتذكر أولوا

---

(1) المحاسن، أحمد بن محمد البرقي، ج1، ص17، باب العقل.

(2) المصدر السابق، ص194.

الألباب﴾»[1].

كم هي عظيمة هذه الرواية؟! وما هذا المقام الذي يصفه النبيّ ﷺ للعقل؟!

وفي روايةٍ أخرى يقول فيها رسول الله ﷺ: «**خلق الله العقل فقال له: أدبر، فأدبر، ثمَّ قال له: أقبل، فأقبل، ثمَّ قال: ما خلقت خلقاً أحبّ إليَّ منك**»[2].

وممَّا يظهر للمتأمّل أنَّ هناك تركيزاً شديداً في حركة الإصلاح، التي قادها نبيّ الرحمة ﷺ على أهمّية العقل ودوره في بناء مستقبل الإنسان فرداً أو جماعةً. فاتّباع العقل، وبناء ثقافة المجتمع على أساسه هو الشعار الذي رفعه للهداية.

وهكذا عندما نرجع إلى كلام أهل بيته وورثة علمه، الذين طهّرهم الله من الرجس وأمر المسلمين باتّباعهم، فإنَّا نجد الكثير من الروايات التي تأمر الأُمّة وتدفعها نحو العقل، إلفاتاً لهم إلى أهمّيته، ودوره الخطير، حتّى قال الإمام الكاظم عليه السلام في وصيته لهشام بن الحكم: «**يا هشام، إنَّ لله حجّتين: حجّة ظاهرة، وحجّة باطنة. أمَّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمّة، وأمَّا الباطنة فالعقول**»[3].

فالعقل هو حجّة الله، يحتج به على خلقه كما يحتج بالرسل والأنبياء والأئمّة عليهم السلام.

فلو أحسن الإنسان استعمال التفكير وتقيّد بقوانينه، فلا شكَّ أنّه سيصل إلى نتائج كبيرة في دنيا الفكر والعقيدة، وفي عالم التكنولوجيا

---

(1) المحاسن، أحمد بن محمد البرقي، ج1، ص193، باب العقل.

(2) المصدر السابق، ص192.

(3) الكافي، الكليني، ج1، ص16، كتاب العقل والجهل.

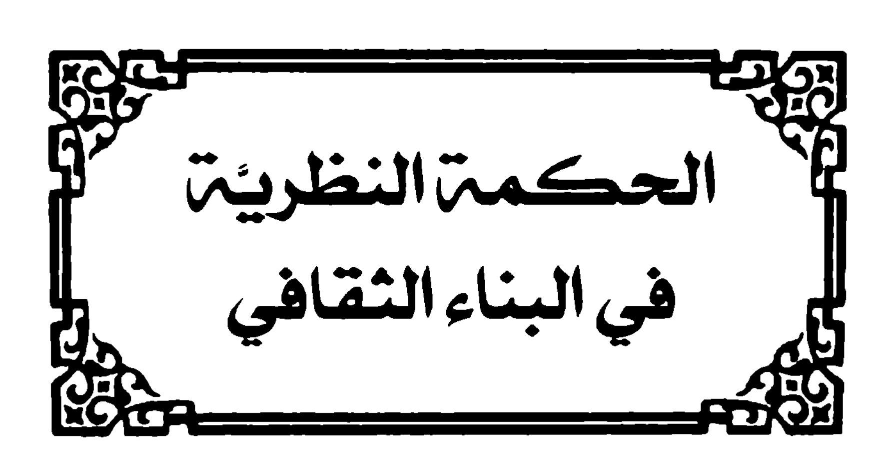
والنظم، ولا تتقدم الأمم إلَّا بمقدار عنايتها بـالتفكير والتمـرس عليـه، وترك ثقافة التبعيَّة والتقليد الأعمى.

وفي كثير من الأحيان لا بُدَّ للإنسان أن يلجأ إلى التقليـد، ولكـن أيّ تقليدٍ؟!

التقليد الذي يدعو إليه العقل والثقافة العقليَّة، وهو تقليد أولي الخبرة والتخصّص.

إذ العقـل يحكـم بعـدم قـدرة الإنـسان على الإلمـام بجميـع العلـوم والـصناعات والحِـرف، فلابُـدَّ مـن اللجـوء إلى الغـير مـن ذوي الخـبرة والاختصاص الذين يُوثق بهم ويطمأنّ إليهم.

ومن خلال ما تقدَّم، يمكن أن نتعرّف على طبيعة الموقف الذي اتخذه النبيّ ﷺ في تعاطيه مع العقل والثقافة العقليَّـة في حركتـه الإصـلاحيَّة، والتي سار على نهجها أهل بيته سلام الله عليهم.



الحكمة النظريّة في البناء الثقافي

قبل الحكم على ثقافة معيّنة بأنَّ لها دوراً ما في هذا المجال أو ذاك، لا بُدَّ من التعرّف عليها إجمالاً والوقوف على أنواعها ومبادئها، وما هو الدور الذي يمكن أن تلعبه في حركة المجتمع؛ لذا يجدر بنا التعرّف على المراد من الثقافة العقليَّة ومفرداتها، لنرى بعد ذلك ما يمكن أن تؤديه في مشروع النهوض بالأُمّة وتنزيهها ممَّا علق بها من شوائب وترسبات، وتمكينها من تمييز ما يُسوَّق إليها من شرق الأرض وغربها، وما ينفعها ممَّا يضرّها، وما يحفظ كرامتها وسيادتها، ممَّا يجعلها خانعة تستجدي كلَّ شيءٍ من خارج حدودها.

وليكن تعريفنا وبياننا للثقافة العقليَّة ببساطة، بعيداً عن التعقيدات اللفظيَّة والمعنويَّة، فإنَّ الثقافة العقليَّة هي تلك الثقافة التي تبدأ بالعقل وتنطلق معه، ولا تحيد عنه، فتقف على العقل وما هو المراد به، وما هو عمله، وما هي وظيفته في حركة الإنسان؟ وما هي قوانينه؟

وعلى الثقافة العقليَّة أن تبيّن هذا من خلال عنصرٍ من عناصرها، وعلمٍ من علومها، وهو ما يسمّى بعلم المنطق، وقد أشرنا إلى أهّميته في بيانه لقوانين التفكير من أجل الحصول على نتائج ومعارف صحيحة.

كما تتضمن الثقافة العقليَّة مفردة أخرى تتكفل ببيان المناهج

والطرق، التي من خلالها يحصل الإنسان على العلوم والمعارف، ويتمُّ فيها بيان صحّة الطريق المعرفي أو عدم صحّته، وهل يمكن الاعتماد عليه في كسب المعرفة؟ وإلى أيِّ حدٍّ ومستوى يعتمد عليه؟ وهو علم المعرفة أو نظريَّة المعرفة (الأبستمولوجيا). وقد أشرنا إليه فيما سبق أيضاً.

وهناك خطوة أو مفردة ثالثة من مفردات هذه الثقافة، وهي الرؤية الكونيَّة، والمراد بها نوع من العلم يؤمِّن للإنسان نظرة شموليَّة حول ما يحيط به من هذا العالم المترامي الأطراف، من أين بدأ؟ ومن الذي أوجده؟ وإلى أين ينتهي؟ وما هو موقع الإنسان فيه؟

وهو ما يعبَّر عنه بعلم الفلسفة، فالفلسفة هي: علم يبحث عن الموجودات الحقيقيَّة، وترابط بعضها مع البعض الآخر، وإثباتها بالدليل العقلي البرهاني، بعيداً عن النصِّ وتأويلاته، وما فيها من هرمنوطيقيا النصّ وتعدّد القراءات.

وبعبارةٍ أخرى: إنَّ الثقافة العقليَّة هي: مجموعة علوم ومعارف تهدف إلى إيصال الإنسان إلى كماله وسعادته من خلال اتّباعه للعقل؛ ولذا يمكن تقسيم هذه العلوم والمعارف إلى منظومة معرفيَّة متكاملة، تبدأ بالتفكير وتنتهي بالسلوك. فقسم منها يتكفل بيان القوانين والقواعد التي تضبط حركة الفكر وكيفيَّة التفكير، وعلم آخر يبيّن القنوات التي من خلالها ترتبط بالواقع المحيط بالإنسان وكيفيَّة الاستفادة منها، ونوع ثالث يعنى بإثبات الحقائق المحيطة بالإنسان من هذا العالم وما فيه من موجودات وخالقه، وكيفيَّة ارتباط بعضها بالبعض الآخر، وهو ما يسمى بالرؤية الكونيَّة. كلُّ ذلك بالبرهان العقلي القطعي.

وهذه العلوم الثلاثة تتكفل الجانب النظري الفكري للإنسان، وهناك

قسم من معارف الثقافة العقليَّة تعنى بالجانب العملي للإنسان، فبعضها يسلِّط الأضواء على ترتيب المجتمع وإدارته وهو علم السياسة، وبعضها يسلِّط الأضواء على سلوك الإنسان كفرد وكيفيَّة إدارته لسلوك وتصرفات نفسه وهو علم الأخلاق.

فالعلوم العقليَّة على خمسة أقسام: المنطق، ونظريَّة المعرفة، والفلسفة (الرؤية الكونيَّة)، والسياسة، والأخلاق.

نظرة حول الفلسفة

ممَّا تقدَّم يعلم أنَّ الفلسفة تتبنى جزءاً كبيراً من إثبات العقائد الصحيحة، إن لم نقل ـ كما هو نظر بعض المحقّقين ـ بل هي بجميعها علم أصول العقائد؛ ولذا تسمّى الفلسفة بالمعنى الأخص بعلم الإلهيات أو الربوبيات.

نعم، يقدِّمون لها مقدِّمة يُوضَّح فيها بعض القواعد التي يحتاجها الباحث الفيلسوف في إثبات مسائل علمه الحقيقي. ويطلقون على هذه المقدِّمة اسم الفلسفة بالمعنى الأعم.

إلَّا أنَّ مشكلة هذا العلم كغيره من العلوم العقليَّة، بقي الغموض والتعقيد يلف أبحاثه من حيث المضمون ومن حيث الألفاظ التي يراد لها أن تؤدي المضمون.

ونحن لا نمانع من وجود بعض البحوث المعمّقة والمعقّدة التي لا يمكن توضيحها إلَّا من قبل المتخصّصين في حلقات درسهم.

ولكن هذا لا يعني أنَّ مباحث هذا العلم الشريف لا يمكن تبسيطها على مراحل ومستويات، كما هو الحال في المواد العلميَّة الأخرى كالرياضيات، فإنَّه من أعقد العلوم قديماً وحديثاً، ولكن مع ذلك فهو

يدرّس لطلّاب الصف الأوّل الابتدائي. ولم يكونوا ليقدِّموا لطلاب هذه المرحلة تلك النظريّات المعقّدة التي تعطى لطلّاب الجامعات مثلاً، بل يدخل العلم ضمن منهجية معيّنة يقسّم من خلالها إلى عدّة مستويات، بحيث تناسب المرحلة العمريَّة المخاطبة من حيث المضمون، وكمية المادّة، وأسلوب طرحها.

وليس هذا بالمستحيل، بل ممكن متى ما تضافرت الجهود وناصرها الحزم والإصرار.

وقد يطرأ على ذهن البعض، ويتساءل عن أثر الفلسفة بشكلٍ خاصٍّ، وما هو دورها في حركة المجتمع الفكريَّة والاجتماعيَّة؟

ويمكننا على عجالة أنَّ نقسّم آثار الفلسفة إلى قسمين: أحدهما عام، والآخر خاص. والمراد من العام ما تشترك به مع سائر العلوم، والخاص هو ما تختص به من آثار دون سائر العلوم.

ولنتحدّث عنهما بإيجاز:

الأثر العام

الأثر العام كما أشرنا هو: ما تشترك في تحقيقه الفلسفة مع كثيرٍ من العلوم، وهو أنَّها تساهم في بناء الإنسان فكرياً وثقافياً، كغيرها من العلوم، فكلُّ علمٍ مهمته ملء فراغ معيّن في ثقافة الإنسان وفكره، وبذلك يحصل له كمال ما يُهيّئه لكمال أكبر وأفضل. يقول الحكيم الكبير **ابن سينا** في "إلهيات الشفاء": (فقد علمت أنَّ العلوم كلها تشترك في منفعةٍ واحدة، وهي: تحصيل كمال النفس الإنسانيَّة بالفعل مهيّأة إيّاها للسعادة الأخروية)[1].

(1) ابن سينا، أبو علي، إلهيات الشفاء، ص26.

وقد علّق الحكيم صدر الدين الشيرازي على هذه العبارة بقوله: (ما من علم إلّا ويحصل به ضرب من الكمال للنفس، وبه تخرج النفس من القوّة إلى ضرب من الفعل. كيف وهو لا محالة كيفيَّة نفسانيَّة وصورة كماليَّة ونور به ينكشف شيء من الأشياء؟! فيكون خيراً ومنفعة من هذه الجهة)[1].

فمن هذه جهة تكون الحكمة (الفلسفة) تكمّل النفس الإنسانيَّة بكمالٍ ما تشترك مع سائر العلوم، إلّا أنَّ الفرق محفوظ بينها، فبعض العلوم أقرب من بعض في تحقيق هذه الغاية، كما أنَّ بعض العلوم تكون أساساً للكمالات الأخروية بشكلٍ مباشر، وبعضها بالواسطة.

الأثر الخاص

ومرادنا من الأثر الخاص هو: الأثر الذي لا يحصل إلّا بها. وقد ذُكِر لها آثار ومنافع خاصة كثيرة، منها:

الأوّل: معرفة حقائق الموجودات على ما هي عليه في الواقع ونفس الأمر، فإنَّ الفلسفة هي العلم الباحث عن الموجود بما هو موجود، بمعنى أنَّها تبحث عن حقيقته، عن ذاته وذاتياته، وعن علله القريبة والبعيدة، وعن لوازمه الذاتيَّة.

وبالتالي فهي تعرّف الإنسان على حقائق الأشياء بحسب الواقع ونفس الأمر، وكفى بذلك كمالاً؛ فإنَّ كمال الإنسان في كون علومه قطعيَّة من جهةٍ، ومطابقة للواقع من جهةٍ أخرى. فهو يعلم الأشياء بنحوٍ تكون مرتسمة في ذهنه ومرتبة فيه كترتبها في العالم الخارجي، وكما يقول

---

(1) الشيرازي، صدر الدين محمد، شرح وتعليق على إلهيات الشفاء، ج1، ص77.

الحكماء: (صيرورته عالماً علمياً مضاهياً للعالم العيني)[1].

وهذا هو هدف الفلسفة وغايتها، بأن تبيّن بالدليل القطعي البرهاني العالم الخارجي كما هو، من دون زيادة ولا نقصان. يقول الحكيم الشيرازي في أسفاره، حين تحدّث عن غاية الفلسفة: (اعلم أنَّ الفلسفة استكمال النفس الإنسانيَّة بمعرفة حقائق الموجودات على ما هي عليها، والحكم بوجودها تحقيقاً بالبراهين لا أخذاً بالظن والتقليد، بقدر الوسع الإنساني. وإن شئت قلت: نظم العالم نظماً عقلياً على حسب الطاقة البشريَّة؛ ليحصل التشبّه بالباري تعالى... فغايتها انتقاش النفس بصورة الوجود على نظامه بكماله وتمامه، وصيرورتها عالماً عقلياً مشابها للعالم العيني، لا في المادّة، بل في صورته ورقشه وهيئته ونقشه)[2].

ويقول الحكيم الملا هادي السبزواري في حاشيته على الأسفار عند كلامه على كون الفلسفة هي أفضل علم بأفضل معلوم: (أمَّا أنَّها أفضل العلوم، فلأنَّها علم يقيني لا تقليد فيه أصلاً، بخلاف الباقي... ولأنَّ فضيلة العلم إمَّا بفضيلة موضوعه أو بشرافة غايته أو بوثاقة مبادئه، والكلُّ متحقّق في هذا العلم. أمَّا الموضوع، فهو الوجود المطلق الذي هو خير محض، وموضوعات مسائله هي الحقّ جلَّ جلاله وصفاته وأفعاله وملائكته المقرّبون... وأمَّا غايته، فهي صيرورة الإنسان عالماً عقلياً مضاهياً للعالم العيني والفوز بالسعادات الحقيقيَّة، وأمَّا مبادئه، فهي البراهين المعطية لليقين الدائم. وأمَّا أنَّ معلومها أفضل المعلومات، فقد

---

(1) انظر: السبزواري، ملا هادي، شرح الأسماء الحسنى، ج1، ص134 و154. الطباطبائي، محمد حسين، نهاية الحكمة، ص307.

(2) الشيرازي، صدر الدين محمد، الحكمة المتعالية، ج1، ص47 ـ 48.

علمت أنَّ المعلوم بها ما هو، بخلاف معلومات غيرها، فإنَّها أعراض من سنخ الحركات أو الكميات والكيفيات أو ما يجرى مجراها)[1].

الثاني: إثبات أصول العقائد بأدلةٍ برهانيَّة ثابتة غير قابلة للنقض.

فإنَّ علم الفلسفة يبحث عن إثبات الواجب وصفاته وأفعاله، وكيفيَّة صدور العالم عنه، وما يترتب على ذلك من مباحث الشرور والقضاء والقدر، وكيفيَّة رجوع العالم إليه. وهو مبحث معاد النفوس إلى بارئها وكيفيَّة حشرها بعد موتها، بل يُبحَث في بعض كتب الفلسفة عن النبوّة والإمامة باعتبارها من أفعاله تعالى[2]. كما أنَّ الكثير من الأسئلة المطروحة حول المعاد والكون ومبدئه ومنتهاه لا يوجد علم يتكفل حلَّها إلَّا علم الفلسفة[3].

الثالث: بناء رؤية كونيَّة برهانيَّة متكاملة.

يقصد بالرؤية الكونيَّة ما يعتقده الإنسان حول الله تعالى والعالم والإنسان، فإنَّ الإنسان يسير في حياته وأخلاقياته بحسب ما يحمله من رؤية كونيَّة توحيديَّة أو مادّية.

وهذا المقدار قد يكون مشتركاً بين الفلسفة وعلم الكلام أو غيره، ولكن هذا العلم يفترق عن غيره بكونه يبحث عن الرؤية على وفق المنهج العقلي الرصين، حيث يقوم بإثبات هذه الرؤية الكونيَّة بكلِّ تفاصيلها بالبراهين العقليَّة المحكمة التي لا تقبل الزوال ولا البطلان؛ إذ إنَّ من خصائص البرهان التي لا يحقّقها غيره هي تحصيله اليقين بالمعنى

(1) الشيرازي، صدر الدين محمد، الحكمة المتعالية، ج3، هامش ص51.

(2) كما فعل الشيخ الرئيس في إلهيات الشفاء، المقالة العاشرة، وقد سرنا على نهجه في كتابنا مبادئ الرؤية الكونيَّة.

(3) انظر: الفياضي، غلام رضا، تعليقة على نهاية الحكمة، ج1، ص30.

الأخص، والذي يُعنى به اليقين الثابت ـ الذي لا يـزول ـ المطـابق للواقـع؛ لأنَّه يثبت واقع الأشياء عن طريق أسـبابها الذاتيَّـة الخاصـة بهـا، بطريقـة علميَّة، لا عن طريق الـشهرة ومقـالات الآخـرين، والأعـراف والتقاليـد والاستحسانات الشخصيَّة.

وعلم الفلـسفة يقـوم بإثبـات الرؤيـة الكونيَّـة بالبرهـان؛ ولذا قيـل: (فضيلة العلم إمَّا بفضيلة موضوعه، أو بـشرافة غايتـه أو بوثاقـة مبادئـه، والكلُّ متحقّق في هذا العلم. أمَّا الموضوع، فهو الوجود المطلق الذي هو خير محض، وموضـوعات مـسائله هي الحـقّ ـ جـلَّ جـلاله ـ وصـفاته وأفعـاله وملائكته المقرّبون وغير ذلك من أعيان الموجـودات. وأمَّـا غايتـه، فـهي صيرورة الإنسان عالماً عقلياً مـضاهياً للعـالم العيـني والفـوز بالـسعادات الحقيقيَّة. وأمَّا مبادئه، فهي البراهين المعطية لليقين الدائم)[1].

والنتيجة: إنَّ الفلسفة تُمكِّن الإنسان من بنـاء رؤيـة كونيَّـة يقينيَّـة تُمكّنه فيما بعد من بناء آيديولوجيَّة سـليمة يـضبط بهـا سـلوكه العمـلي، يقول **العلَّامة المظفّر**: (هدف الفلسفة معرفة حقـائق الأشـياء على مـا هي عليه بقدر الطاقة البشريَّة)[2]. ويقول **الفياضي** في شرحه لنهايـة الحكمـة عند قول العلَّامـة (نعـم هنـاك فوائـد تترتـب عليهـا): (وذلـك كتميـيز الوجودات الحقيقيَّة عن غيرها، والحصول على رؤية كونيَّة عامـة متـضمنة لمعرفة الله ومعرفة أسمائه وصفاته، وكإثبات موضوعات سائر العلوم، ممَّـا يحتاج إلى الإثبات ولا يكون بديهياً)[3].

---

(1) الشيرازي، صدر الدين محمد، الحكمة المتعالية، ج3، هامش ص51.

(2) المظفّر، محمد رضا، الفلسفة الإسلاميَّة، ص77.

(3) الفياضي، غلام رضا، تعليقة على نهاية الحكمة، ج1، ص30.

وبعد هذه الإطلالة على فوائد الفلسفة، وما نقلناه من أقوال نزر قليل من كلمات أكابر أهل الفنِّ، نستطيع أن نقول بأنَّ الفلسفة من العلوم الضروريَّة للإنسان، والتي لا بُدَّ من دراستها على كلِّ ذي لبٍّ؛ باعتبارها العلم الوحيد الذي يكشف الواقع كما هو بحسب نفس الأمر، والعلم الوحيد الذي يُمكّن الإنسان من تحصيل اليقين بالرؤية الكونيَّة والعقيدة الحقّة؛ ولذا فلا بُدَّ من تضافر الجهود من أجل تبسيط مطالبها وتنزيلها لكآفّة شرائح المجتمع، كما فعل علماء الحساب والهندسة والفيزياء والحياة والطب و...، حيث نزَّلوا علومهم إلى كآفّة مراحل البشر، ومنذ سنواته الأولى، فإنَّ الطالب يدرس هذه العلوم من الصف الأوّل الابتدائي، فلِمَ لا تكون العلوم العقليَّة كذلك؛ مع ما لها من أهمّية وفوائد لا تنكر.

كيفية تسخير مسائل الفلسفة في خدمة الأمة وهدايتها

تقدَّم أنَّ الفلسفة هي: العلم الباحث عن الموجودات بالدليل العقلي البرهاني، ومن أهم مسائلها هي أصول الدين، من إثبات الواجب تعالى وتوحيده وصفاته، وأفعاله والتي منها النبوّة والإمامة والمعاد.

فهي العلم الذي يمكّن الإنسان من بناء رؤية كونيَّة قائمة على الدليل البرهاني؛ وبالتالي تنعكس على ما يؤمن به من آيديولوجيَّة ونظام، ومن ثَمَّ تأثيرها على السلوك الفردي والاجتماعي.

فهي بحقٍّ أفضل علم بأفضل معلوم بأفضل دليل وأفضل مبادئ؛ وعلى ذلك فهذا العلم يستدعي التفكير في كيفيَّة إيصاله إلى أكبر عدد ممكن من أبناء الإنسان، ومختلف الشرائح.

ومن هنا يطرح سؤال عريض، وهو: كيف نبسّط هذا العلم ونسخّره

في خدمة الأُمّة ونهوضها الفكري والثقافي، وما إلى ذلك في مختلف شؤون الحياة؟ وما هي الوسائل المقترحة لذلك؟

وفي هذا الصدد يسمح لي القارئ أن أذكّره بما تقدَّم ـ كمقدِّمة مهمة ـ من كون فعل الإنسان الفردي أو الاجتماعي هو في حقيقته فعل اختياري غير مجبر عليه. والفعل الاختياري لا بُدَّ له من سبب، وأسباب الفعل الاختياري هي باختصار الإرادة الناشئة من الشوق نحو الفعل، الناتجة بدورها من علم الإنسان بفائدة الفعل والمصلحة التي يشتمل عليها.

وعليه فأساس الفعل الاختياري هو العلم، فمن أراد أن يؤسس لظاهرة اجتماعيَّة إيجابيَّة أو يرفع ظاهرة اجتماعيَّة سلبيَّة، فعليه أوّلاً أن يخطِّط لثقافة معيّنة تساهم بإيجاد أو رفع الظاهرة الاجتماعيَّة.

ومن هنا فإذا كنَّا نريد التأسيس لمجتمع موحِّد يؤمن بالله والإسلام؛ وبالتالي يحتضن الإسلام فكراً وعملاً، فلا بُدَّ من التأسيس لذلك عبر ثقافة تدفع بالمجتمع بجميع شرائحه نحو الحق فكراً، ونحو الخير سلوكاً. وهذه الثقافة هي الثقافة العقليَّة ـ كما تقدَّم بيانه ـ والتي تتبناها الفلسفة الإسلاميَّة.

فلا بُدَّ من العمل على شرح الفلسفة وتبسيطها وتنزيلها لجميع شرائح المجتمع، ومنذ سنيّه الأولى، فلا بُدَّ أن تكون على شكل مناهج درسية لطلاب الابتدائيَّة والمتوسطة والثانويَّة، كما لا بُدَّ من وضع مناهج متدرجة لطلاب العلوم الدينيَّة؛ تمكّنهم من المعتقد الراسخ، والنظرة الدينيَّة الشاملة، والقدرة على دفع الشبهات مهما تكاثرت.

كما يمكن إنزالها من خلال الندوات الفكريَّة، والدورات المكثّفة، والاستفادة من العروض والمرئيَّة من التلفاز وما شابهه.

مقارنة بين الفقه والعقائد

عندما يريد الفقيه استنباط حكم شرعي في واقعة معيّنة يحتاج إلى إقامة دليل يعينه على مهمته هذه، ولكن لا يمكنه الإفادة من كلِّ دليلٍ، فلابُدَّ من علمٍ تعرض فيه الأدلة على طاولة البحث؛ لمعرفة الحجّة التي يمكن الاعتماد عليها من غيرها. ومن هنا صبّ الفقهاء جهودهم على علم أصول الفقه وتدوينه؛ ليتكفل بهذه المهمة العظيمة.

فعلم أصول الفقه هو: العلم الذي يستعرض الأدلة، التي يمكن أن تستخدم في عملية استنباط الحكم الشرعي؛ ليقوم بغربلتها، وبيان الصالح لهذه المهمة من غير الصالح. فهو علم نقد الأدلة الفقهيَّة.

ولذا لا يحقُّ للفقيه أن يدخل أبواب الفقه ما لم تكن عنده إحاطة تامة بعلم أصول الفقه؛ ليعرف أيَّ الأدلة يمكنه الإفادة منه، وأيّها باطل لا يستفاد منه.

فكذلك عند البحث في المسائل العقائديَّة، يحتاج الباحث إلى علم شبيه بعلم أصول الفقه. فكما أنَّ علم الفقه يحتاج في استنباط مسائله إلى مجموعة من الأدلة يستعين بها على ذلك، إلَّا أنَّ هذه الأدلة لا بُدَّ من معرفة دليليتها وحجّيتها، ومقدار ما لها من حجّية، وأنَّها إذا تعارضت مع بعضها البعض فأيّها مقدَّم، فكذلك الباحث في علم العقائد يحتاج في استنباطه للأحكام العقائديَّة إلى مجموعة من الأدلة، لا بُدَّ من معرفة حجّيتها ومقدار حجّيتها ومعرفة المتقدِّم من المتأخّر منها عند التعارض. كما لا بُدَّ من طرح بعض المسائل والقواعد المهمة في البحث العقدي، والتي تعتبر بمنزلة المبادئ التصديقيَّة للبحث، فكان لزاماً على العلماء والباحثين تأسيس علم يتكفل ببيان هذه الأمور والمسائل. ولنطلق عليه اسم علم

أصول العقائد[1]، على غرار علم أصول الفقه.

وفي ذلك العلم تُبحث المناهج المعرفيَّة التي يستفاد منها في الفكر العقائدي، والمناهج التي لا يمكن الاستفادة منها هناك، فمثلاً المنهج التجريبي، فإنَّه منهج خاص بالعلوم التي تتبنى اكتشاف القوانين الطبيعيَّة (عالم المادّة). وهذا المنهج لا يمكن الإفادة منه في القضايا غير المادّية؛ لأنَّ التجربة عبارة عن ثلاث خطوات، هي: الاستقراء للجزئيات المادّية، ثمَّ القياس الخفي الذي هو عبارة عن قياسين: استثنائي، واقتراني. فالبحث عن غير المادّيات (كالعقائد وعالم الغيب)، لا يمكن فيه الاستفادة من التجربة؛ لأنَّ الخطوة الأولى في التجربة ـ وهي استقراء الجزئيات المحسوسة ـ غير موجودة.

وهكذا يتكفل هذا العلم دراسة وتتبع الأدلة والمناهج المعرفيَّة وإثبات حجّيتها أو عدمها، وهل يمكن الإفادة منها أو لا.

وإذا تمَّ إنجاز وتأسيس هذا العلم، فإنَّه يجعل البحث العقائدي منضبطاً بقانون معتبر كالفقه، ولا تتطرق إليه الشبهات والأهواء والدعاوى التي تعصف بالأُمَّة من كلِّ جانبٍ بحجّة التحرّر العقلي والفكري، أو بحجّة الرجوع إلى الدِّين وأهله. فإنَّ هاتين الدعويين الإفراطيَّة والتفريطيَّة لا يمكن الركون إليهما لو كان هناك ميزان يحكم البحث العقائدي، ولانحسرت الدعاوى في المجال الفكري والعقائدي كما هي منحسرة في المجال الفقهي، بل قد تصل إلى حدِّ الانعدام.

والخلاصة: فالثقافة العقليَّة لها آثار عامة، وهي تكميل النفس ورفع النقص عنها، وتأهيلها للنشاط العقلي الذي يسهِّل على روادها تقبّل فكرة

---

(1) هذه التسمية أطلقها على هذا العلم الذي يراد تأسيسه سماحة أستاذنا الدكتور أيمن المصري.

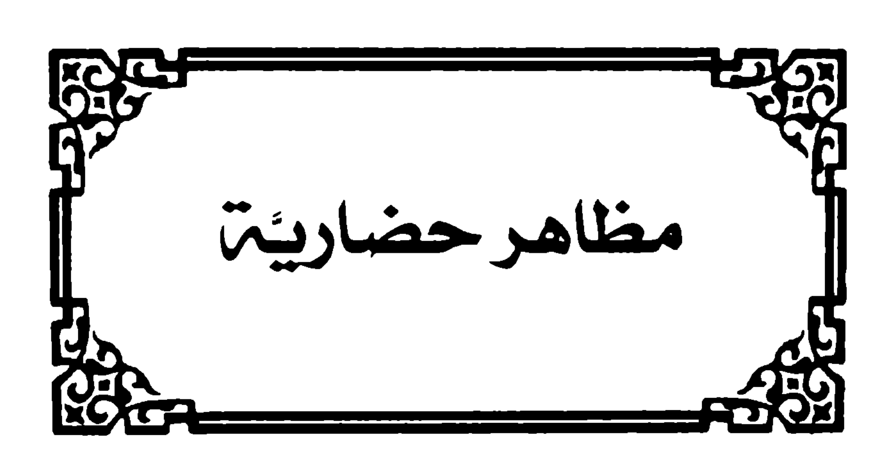
الغيب، أو لا أقل فهمها بشكلٍ صحيح.

كما أنَّ لها آثاراً ومنافع خاصة، وهي: معرفة الأشياء على ما هي عليه في الواقع ونفس الأمر بشكلٍ عقلائي خالٍ من الخرافات البدع، وبناء رؤية كونيَّة مستندة إلى البرهان العقلي الذي لا يتزلزل بالشبهات؛ وبالتالي بناء منظومة فكريَّة متكاملة من العقائد والآيديولوجيَّة والسلوك، وتخليص المجتمع من جميع ألوان الانحراف الفكري الإفراطي والتفريطي.

وبإمكان هذه الثقافة تزويد البحث العقائدي بما يحتاج إليه من علم شبيه بعلم أصول الفقه، يبحث فيه عن الأدلة وحجّيتها ودائرة حجّيتها، ودراسة بعض المقدِّمات والمبادئ التصديقيَّة المرتبطة بالبحث، وهو علم أصول العقائد.

وهذا ما يتطلب من الباحثين والمثقَّفين أن يبذلوا الجهود في تبسيط البحث العقلي، وإنزاله إلى المجتمع بكآفّة شرائحه؛ لكي يتيسر للجميع معرفة العقائد بطريقة برهانيَّة مبسطة، وتسليحهم ضدَّ الشبهات والانحراف الفكري والعقائدي؛ ليكون ثقافة عامة في المجتمع من خلال أدوات تعليميَّة خاصّة، من قبيل: الورشات، والدورات المكثّفة، والندوات العلميَّة، والمناهج المدرسيَّة، والمؤتمرات، والمجلّات الثقافيَّة المبسطة.

ثمَّ بعد ذلك لا بُدَّ من بناء ثقافة المجتمع بشكلٍ مترابط ومنسجم، بحيث يربط فيها العقائد بالآيديولوجيَّة ومن ثَمَّ بالسلوك؛ لتخليص المجتمع من مرض الازدواجيَّة المقيتة، وإعادة الثقة إلى أبناء الأُمّة، وجعلها أُمّة تحمل ثقافة مستقلة، فتتخلص من أسارة التبعيَّة للغرب أو الشرق، فيكون إخلاصها لدينها وأُمّتها الواحدة فحسب.



مظاهر حضاريّة

من أبرز مظاهر ثقافة الشعوب هو اهتمامها بالمطالعة، وإعطاؤها الوقت الكافي واللازم لها. يقول **ألبرت هيوبارد**: (لن يكون هناك بلد متحضِّر حتّى ينفق على الكتب أكثر ممّا ينفق على شراء العلكة).

فهل نحن كشعبٍ وكأُمّةٍ نتمظهر بهذه الظاهرة الصحيَّة الحضاريَّة؟!

هناك بعض الإحصائيات، التي تتحدّث عن المطالعة في الدول الإسلاميَّة أو العربيَّة عندما يطّلع عليها المرء يصاب بالذهول لأوّل وهلةٍ، ثمَّ يصاب باليأس.

ما هي ردة فعلك عندما تقرأ التقرير الآتي:

وقد تستغرب عندما تقرأ التقرير الذي يطلعنا عليه الكاتب **عدنان غادر** في مقالٍ له تحت عنوان: "**مأساة القراءة في الوطن العربي .. هل ما زال خير جليس في الزمان كتاب؟**"، جاء فيه: (جاء فيتقرير التنمية الإنسانيَّة العربيَّة، والذي أشرف عليه المئات من الخبراء والعلماءوالباحثين، ووصلوا إلى النتيجة المذهلة القائلة: إنَّ ثلث الرجال ونصفالنساء في الوطن العربي لا يقرؤون، فهل القراءة مؤشر الحياة؟ أم الحياة مؤشر القراءة؟

من ناحيةٍ أخرى، قالت منظمة اليونسكو في تقريرٍ لها عن القراءة في

الوطن العربي: إنَّ المواطن العربي يقرأ 6 دقائق في السنة! مع ملاحظة أنَّ هذه الإحصائيَّة محذوفمنها قراءة الصحف والمجلّات، والكتب الدراسيَّة، وملفات العمل وقراءة التقارير، وقراءة كتب التسلية.

وتتفق مختلف الدراسات والإحصاءاتحول معدلات القراءة في العالم العربي، والتي تظهر أنَّ معدل قراءة المواطن العربي سنوياًربع صفحة، في الوقت الذي تبيّن فيه أنَّ معدل قراءة الأمريكي 11 كتاباً، والبريطاني سبع كتب في العام.

واعتبر خبراء ومثقّفون أنَّ نتائج هذه الدراسات ليست مستهجنة بالنسبةلهم أو لأصحاب القرار، فجميعهم يدركون هذا الأمر ولا يستهجنونه. وفي الوقت الذي حمّل فيه بعضهم الظروف الاقتصاديَّة والسياسيَّة المسؤوليَّة، اعتبر آخرون أنَّ هذه الظروف يجب أن تكون حافزاً للقراءة لا العكس).

ولكن قد تسأل هل أنَّ العيب في الكتاب أم...؟

لا أريد أن أنزّه الكتّاب والمؤلّفين عن كلّ تقصيرٍ، فهناك عدد من الكتب لم تكتب بداعٍ إصلاحي، ولم ينظر إلى إسعاف الحالة الاجتماعيَّة وما تعانيه من تدهورٍ ثقافي واجتماعي وأخلاقي وعلمي و...

ولكن ليس هذا هو المشكلة الأساس، بل هناك مشكلة أهم. هناك حقيقة لا بُدَّ من الاعتراف بها، وهي أننا أُمّة ليست قارئة، نحن أُمّة لا نقرأ ما ينفعنا، ولا نقرأ ما يحاك ضدّنا.

قام صحفي هندي يدعى **كارابنجا** بنشر كتابٍ تحت اسم "**خنجر إسرائيل**" عام 1957، ونشر فى الكتاب حواراً أجراه مع وزير الحرب الإسرائيلي موشي ديان، قال فى حواره: إنَّ إسرائيل ستدمر كلَّ الطائرات المصرية فى

موطنها، وبذلك تصبح السماء لنا، وبذلك تحسم الحرب (قبل حرب 67).

وكشف الصحفي عن وثيقة سرّية إسرائيليَّة لتقسيم أرض العرب إلى إقامة دولة إسرائيل الكبرى من نهر النيل إلى الفرات من خلال تقسيم: العراق إلى 3 دول هي: (سنيَّة فى الوسط ـ شيعيَّة فى الجنوب ـ كرديَّة في الشمال، ينضمُّ إليها كلُّ الأكراد من الدول المحيطة)، سوريا تقسّم إلى3 دول: (سنيَّة ـ علويَّة ـ درزيَّة)، لبنان تقسم إلى دولتين: (شيعيَّة فى الجنوب، ومارونيَّة فى الشمال)، السودان إلى3 دول، مصر إلى 3 دول.

وعندما سأل الصحفي ديان عن كشفه لمثل هذا المخطَّط كان ردّه: (إنَّ العرب لا يقرؤون).

وأكثر من ذلك، فقد يدّعى أنَّ ظاهرة عدم القراءة قد تكون مقصودة، فهناك من يستفيد من عزل الأُمّة عن الكتاب؛ ولذا يقول **الأديب الأميركي** راي برادبوري: (ليس عليك أن تحرق الكتب لتدمِّر حضارة، فقط اجعل الناس تكفَّ عن قراءتها ويتمُّ ذلك).

وهناك كلام طويل في هذا المجال لا حاجة لذكره، فإنَّ نظرة سريعة إلى الحياة اليوميَّة لما يحيط بك من أبناء أُمّتنا، ينبئك عمَّا هو أبشع بكثير من هذه التقارير.

إلَّا أنَّ المهم ليس نقد الواقع ـ وإن كان مهماً ـ وإنَّما الأهم منه هو بيان العلاج اللازم للتخلص من هذه الظاهرة الكارثيَّة في ثقافة أُمّتنا كما يعبِّر عنها البعض.

كيف نعيد حالة المطالعة ومجالسة الكتاب، والتلهف لطلب العلم والمعرفة بين أوسع مساحة ممكنة من أبناء مجتمعنا، الذي التهمه اللهو بما لا ينفعه إذا لم نقل إنَّه يهدِّد حياته ومستقبله بالخطر؟

ولكن لا مكان لليأس في النفوس التي آمنت بالحي الذي لا يموت، لا مكان لليأس في النفوس التي آمنت بالقادر الذي لا يعجز، التي آمنت بالواحد الذي أخرج يوسف من البئر، وجعله بعد العبودية ملكاً، والذي فلق البحر لموسى، والذي نصر محمّد بن عبد الله ﷺ في مشروعه الحضاري؛ ليصنع من قبائل العرب ـ التي ترفل بالجهل ـ أُمّةً متحضّرةً، تطمح أن تسوق الأمم نحو الخير ونور العلم والمعرفة.

نحتاج في نهضتنا إلى شيءٍ واحد، وهو العمل.. العمل.

فلنشخِّص الغاية التي نريد الوصول إليها، ونرسم الخطط لبلوغها، لنبدأ العمل، لقد سئمنا وسئمت أُمّتنا من اليأس، فلم نرَ إلّا الكلام.

فإذا أردنا التخلص في هذه الظاهرة ـ انعدام القراءة والمطالعة، وبالتالي انحسار الثقافة ـ التي تقف في وجه مشروع النهوض بالأُمّة، فعلينا أن نضع خطة العمل، وليبدأ كلٌّ منّا من موقعه ومكانه وقابلياته، «**لا تستحِ من إعطاء القليل، فإنَّ الحرمان أقلّ منه**»[1].

ولا يصحّ لنا التشاؤم والنظر إلى المجتمع نظرة سوداوية مطلقة، بل يضمُّ المجتمع بين شرائحه نماذج ذوي كفاءات عالية في ميادين شتّى، قد غمرتهم الظروف، وحجبتهم عن القيام بوظائفهم.

ومن خلال المطالعة وصداقة الكتاب، يمكن لهؤلاء أن يجدوا أنفسهم ومكانتهم، ليجدوا ـ فيما بعد ـ أُمّتهم وطموحاتها، وما تمتلكه من مؤهلات للنهوض.

ومن أجل إعادة الكتاب إلى أحضان الأُمّة، وجعله يحتل مكانته اللائقة به كأمرٍ مهم لإحياء الثقافة، ويحتلّ المكانة اللائقة بالأُمّة من كونها أُمّة

---

(1) نهج البلاغة، الإمام علي عليه السلام، الكلمات القصار، 67.

متحضِّرة، يُعدّ الكتاب جزءاً من تراثها وحضارتها، بل هو وصية ربّها[1].

فمن أجل ذلك، لا بُدَّ أن تتخذ الجهات المعنية والمثقّفون وأصحاب الاهتمام بالشأن الثقافي بعض الإجراءات؛ لإنعاش هذه الظاهرة الحضاريّة، وإحيائها في وسط الأُمّة، والتي منها:

الأوّل: الاهتمام بتأسيس مكتبات عامة للمطالعة في شتّى التخصّصات: الأدبيَّة، والتاريخيَّة، والعلميَّة، والفكريَّة. وتهيّأ فيها قاعات للمطالعة تستهوي القرّاء.

وليس مرادنا إنشاء مكتبة أو اثنتين، بل لا بُدَّ من تكثيرها بحيث تكون في أغلب أنحاء المدينة؛ لتكون في متناول الجميع، فلا يحتاج القارئ أن يقطع المسافات ليصل إلى بغيته، والذي قد يثير حالة التكاسل من الذهاب إليها.

الثاني: إقامة الندوات الفكريَّة الحوارية في أهمّية المطالعة، ودورها في تنضيج الوضع الثقافي للأُمّة، وبثُّها في قنوات الإعلام؛ ليتسنى للجميع الاطّلاع عليها.

الثالث: الدعوة إلى كتابة بحوث ودراسات ومقالات في مختلف المجالات، على أن تكون الدعوة عامة، ويقدَّم فيها جوائز للفائزين بالمراتب الأولى، فإنَّ لهذا أثره الكبير في حثّ الشارع إلى المطالعة والمساهمة الثقافيَّة.

الرابع: التصعيد الإعلامي حول ثقافة إدارة الوقت، وهكذا سائر الأمور التنمويَّة والتوعويَّة، من خلال إقامة الورشات والدورات و... .

---

(1) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ*الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ العلق: 1 ـ 5.

الخامس: إقامة مؤتمرات داخل كلِّ محافظةٍ حول الكتاب، يتمُّ الدعوة فيها إلى انتخاب أفضل كتاب في المحافظة أو الكتب الثلاثة الأُول، ومن ثَمَّ تشترك الكتب الفائزة من جميع المحافظات لانتخاب الأفضل على مستوى القطر.

السادس: التأسيس لإصدار مجلَّةٍ أو صحيفة في كلِّ مدينةٍ ـ وإن كانت صغيرة ـ تعنى بالجانب الثقافي والتنموي.

السابع: السعي وراء البناء الثقافي، لا التراكم الكمي الذي أشرنا إليه فيما سبق، وتفعيل دور الثقافة العقليَّة بشكلها الصحيح.

الثامن: دعوة أصحاب الاختصاص في كلِّ جانبٍ، ومنها التخصّصات العقليَّة؛ للمشاركة في نشاطات ثقافيَّة من قبيل الندوات، لتفعيل ثقافة ذلك التخصّص في وسط الأُمّة.

كما نتمنى على وزارة الثقافة تفعيل مساعيها في هذا الجانب، وإبراز دورها وتظهيره على متن الواقع.

المطالعة للأطفال

المطالعة ثقافة يتوارثها الجيل من سابقه داخل الأمم المتحضِّرة، فلا يمكن أن تُهمل هذه الفترة من العمر، التي هي أساس تكوّن العادات داخل الجيل؛ ولذا نجد الأمم والشعوب تضع من أولويات برامجها تعويد الطفل منذ صغره على حبِّ الكتاب، والأنس بمجالسته، والارتياح بمطالعته. فإنَّ هذا ليس بالأمر السهل، بل يحتاج إلى جهودٍ كبيرة، وقد ورد في الخبر: **«مثل الذي يتعلّم العلم في صغره كالنقش على الحجر»**[1].

---

(1) منية المريد، الشهيد الثاني، ص225.

ومن أجل تفعيل ظاهرة المطالعة والقراءة بين هذه الفئة العمريَّة، لا بُدَّ من مراعاة عدّة أمور، منها:

الأول: تناسب الكتاب مع عمر الطفل

كُتِبت المعرفة ـ على اختلاف أنواعها ـ بصياغات مختلفة، فبعضها كُتِبت للمتخصِّصين، وبعضها كُتِبت للمثقَّفين أو الشباب، وهناك مجموعة من الكتب دُوِّنت لهذه المرحلة خاصّة ـ مرحلة الطفولة ـ وهي على مراحل أيضاً. فعلى الآباء والمربّين مراعاة ذلك؛ فإنَّ الطفل إذا لم يفهم المضمون أو لم يكن إخراج الكتاب مناسباً لذوقه الطفولي، فإنَّه سينفر من الكتاب، ولا يستطيع مطالعته، ممَّا يجعل الآباء والمربّين يلجؤون إلى الأسباب الأكثر فشلاً، وهو أسلوب الجبر والضغط والتهديد.

الثاني: موافقة الكتاب لاهتمامات الطفل

بعض الأطفال يميلون إلى التعرّف على الكون والكواكب، ويتلهفون لمتابعة أيِّ شيءٍ يتحدَّث عن ذلك، وبعضهم يحبُّ الاطّلاع على عالم الحيوان، وآخر تستهويه الرياضة. فعلى الآباء والمربّين أن يكتشفوا هوايات الأطفال، ويوفروا لهم الكتب في ضمن هذه الهواية؛ من أجل استمالتهم إلى المطالعة وتحبيبها لهم.

الثالث: مشاركة الطفل في القراءة

من جملة الطرق التي تجعل الطفل يرغب في القراءة فيتعوّد عليها، هي مسألة مشاركة الآباء له في مطالعة كتبه، وشرحها له أو الاستفسار منه؛ لكي يتحدَّث هو عمَّا دُوِّن في الكتاب. وهذا من أروع الأساليب في استمالة

الأطفال للمطالعة، وتعويدهم عليها.

الرابع: اصطحاب الأطفال لمحل بيع الكتب

لا بُدَّ من تخصيص يوم في الشهر على الأقل نصطحب فيه أطفالنا إلى المكتبات، وأسواق بيع كتب الأطفال، وإعطائه حرّية انتخاب كتابه، والتشاور معه في انتخاب ما يريد؛ فإنَّ له أكبر الأثر في جعله مهتماً بالمطالعة، واقتناء الكتب النافعة له.

كما يحسن اصطحابه إلى المكتبات العامّة، وصالات المطالعة؛ ليتعوّد على أجواء المطالعة الهادئة، ويراها عن قرب؛ ليكون في مستقبله ممَّن يرتاد هذه الأماكن الهادفة.

الخامس: تعليم الطفل طريقة المطالعة الصحيحة

بيان طرق المطالعة الصحيحة، بحيث نجنب الطفل المضار الصحيَّة والنفسيَّة، وإتلاف الوقت، أو عدم ارتكاز المعلومات المقروءة، وعدم إثارة الملل عنده.

المدرسة ودورها في تفعيل رغبة المطالعة

تعتبر المدرسة صاحبة القسط الأكبر في حياة الطالب وتكوّن شخصيَّته، فبيئة المدرسة، وشخصيَّة المعلِّم، وطبيعة المنهج، والجدول الدراسي الأسبوعي، وطريقة عرض المواد، وكيفيَّة تعاطي الإدارة، لها أكبر الأثر في سلوك الطالب وتعاطيه مع العلم والمعرفة.

فلو كان التعاطي في المدرسة مع الطالب على أساس الدرجة الامتحانيَّة، وعدم لحاظ الجوانب الأخرى، فلا شكَّ أنَّ العلم يفقد قيمته في شخصيَّة

الطالب وثقافته، بل سيكون سلوك العلمي هو الحفظ في أجل الامتحان، أمّا التحقيق والبحث والتعلّم لبناء الذات، فلا محلّ له في شخصيّته وثقافته؛ ومن هنا تجد الكثير وبعد دراسته ومرافقته للكتاب والدرس بأكثرمن اثني عشر عاماً يهجر الكتاب، بمعنى أنَّ الطالب بعد تخرجه من الجامعة لا يفكّر في المطالعة حتّى في اختصاصه، فضلاً عن المطالعة في المجالات الأخرى؛ ولذا تقول بعضي الدراسات: إنَّ نسبة المطالعين والقارئين بين الفئة الجامعيَّة تساوي 17 ٪. وهذا يعني أنَّ 83٪ من الفئة نفسها لا علاقة لها بالكتاب والقراءة !!!

وهذه حالة غير صحيَّة في الجانب الثقافي والمستوى الفكري، فلا بُدَّ من الالتفات إليها ومعالجتها بطرقٍ علميَّة باستعراض أسباب المشكلة، ومن ثَمَّ وضع الحلول الاستراتيجيَّة لرفعها؛ ولذا نقترح على مدراء المدارس والمسؤولين التعليميين بعض الأمور، التي تعين على إنعاش الوضع الثقافي لدى الطلاب، وتنمية حالة القراءة عندهم:

الأوّل: تأسيس مكتبة عامة للمطالعة، ووضع حصة مطالعة ضمن الحصص الدراسيَّة الأسبوعيَّة، على ألّا تقل عن حصتين في الأسبوع، وأن تكون بإشراف مرشد الصف، وفتح مجال للاستعارة فيها.

الثاني: إيجاد مكتبة لبيع الكتب التي تناسب أعمار الطلاب في المدرسة، على أن يراعى فيها التنوّع المعرفي للعلوم التي درسها، والكتب الثقافيَّة والفكريَّة التي تناسب تلك المراحل.

ولذا نفضّل أن تكون الكتب التي تباع فيها تحت إشراف لجنة من الأساتذة، الذين لديهم معرفة في هذا المجال؛ بحيث لا يكون تجميع الكتب عشوائياً.

الثالث: دعم الكتاب؛ ليتسنى للطالب اقتناؤه، بمعنى أن يراعى الوضع المادّي لأضعف الطلاب، فلا تكون الكتب حكراً على طبقة معيّنة ويحرم الأخرون منها.

الرابع: خلق جوٍّ ثقافي يشدّ الطالب للمطالعة، من خلال إجراء المسابقات العلميَّة للبحوث والمقالات، والتشجيع على المطالعة من خلال الكلمات التوجيهيَّة للإدارة والأساتذة، ونشر بعض فوائد المطالعة وأهمّيتها في النشرة الجداريَّة للمدرسة.

الخاتمة

من خلال ما تقدَّم من البحث، يتبيّن أنَّ الأساس الذي تبتني عليه حركة المجتمع ـ صعوداً وهبوطاً ـ هو نمط التفكير، فإذا كانت طبيعة التفكير تسير وفق معايير وقوانين سليمة، وخطوات منظّمة لا شكَّ سوف تخرج النتائج من الأعراف والتقاليد والمعتقدات والقيم الأخلاقيَّة والاجتماعيَّة، أبعد ما يكون عن الخرافة والازدواجيَّة والتبعيَّة أو الخمول والتشرذم، وما شابه ذلك من الأمراض التي تنخر في جسد المجتمعات البشريَّة، ولكن هذه الأوبة الفتّاكة، ليست ببعيدة عن فكر الأُمّة وسلوكياتها، عندما تفكّر خارج الأطر والقوانين الصحيحة والطبيعيَّة لنظام العقل التكويني الفسلجي.

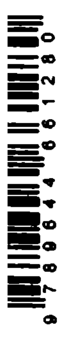
وهذا ما يحدِّد نجاح نهضة الإصلاح أو فشلها في الأُمّة، فالمصلح إن بدأ بحركته ونهضته من الجذر استطاع أن يقطف ثمارها، ولو على المدى البعيد، وإلّا فلا يحصد من عناء جهوده إلّا التحشيد الجماهيري الآني على أحسن الاحتمالات.

فلنضع الركود والاتكال على الغير والتنصّل عن المسؤوليَّة جانباً، ولنعمل على بثّ الروح الحضاريَّة في أُمّتنا من جديد، فإنَّ مجرَّد التمجيد بجهود الماضين من أسلافنا، أو الانبهار بما تحقّقه المجتمعات الأخرى القديمة والمعاصرة لا يجدي نفعاً في حلّ الأزمة، فإنَّ عزّة الشخص وفخره ورفعته بمقدار عزّة الأُمّة التي ينتمي إليها، وبمقدار ما يمتلكه المجتمع الذي ينتمي إليه من حضارةٍ وعقلانيَّةٍ ونبلٍ في القيم.

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

فهرس الموضوعات

❝ ليس لنا أن نغض الطرف عن عواصف الأفكار التي تجترف أبناءنا قادمة من غرب الدنيا تارةً، ومن شرقها أخرى، فإنّ جلسات معدودة مع مثقفي اليوم تطلعك على شتّى الأفكار المستوردة التي لا تمتّ إلى معتقداتنا بشيء؛ ومن هنا مسّت الحاجة إلى تسليط الضوء على مشكلة كبيرة كهذه، والبحث عن أسبابها وكيفيّة علاجها من خلال قراءة تشريحيّة لدور الثقافة في إيجاد المشكلة أو حلّها؛ لنجد أنّ الأزمة أعمق من الثقافة، بل هي في أساس التفكير وأصوله وحدود المناهج المعتمدة في كسب الثقافة، الذي منه تتولد الثقافة، وتُبنَى قلاعها ويحكم رتاجها.





إيران - قم - شارع بوعلي سينا - الزقاق 11 - البناية 8
الهاتف: 32937909-25-98+ 9127596259-98+
www.aqliyah.com
info@aqliyah.com